جامعة قاصدي مرباح ورقلة

قسم اللغة العربية وآدابها

رقم الترتيب:....
رقم التسلسل:....

مذكـــــــــــــرة

مقـدمة لنيـــل شهـــــادة

الماجستيـــــــــــــر

فـــرع : أدب عربـــــي

تخصص : علوم اللسان العربي والمناهج الحديثة

إعداد الطالب : عامر بن شتوح

تحت عنوان :

ملامح التفكير السيميائي في اللغة عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين

نوقشت يوم : 2009/04/29

أمام لجنة المناقشة المكونة من :

أ.د- أبوبكر حسينـــي	أستاذ التعليم العال بجامعة ورقلـــة	رئيسا ومقررا
د-عبد المجيد عيساني	أستاذ محاضر(أ) بجامعة ورقلـــة	مشـــرفـــا
د- عبد المجيد سالمي	أستاذ محاضر(أ) بجامعة الجزائـــر	منـــاقشـــا
د- بلقاسم حمـــــام	أستاذ محاضر(أ) بجامعة ورقلـــة	منـــاقشـــا
د- بوجملين لبـــوخ	أستاذ محاضر(أ) بجامعة ورقلـــة	منـــاقشـــا

ملخص بالعربية

إن البحث في التراث العربي الإسلامي و مقاربته بالمناهج الغربية الحديثة، وفق متغيرات العصر الحديث في مجال العلوم الإنسانية،ليس بالأمر الهين ،فحاولنا البحث عن ملامح التفكير السيميائي في اللغة عند الجاحظ من خلال البيان و التبيين،فقسمت البحث إلى فصل تمهيدي،تناولت فيه ماهية علم السيميائيات،ثم تناولت حياة الجاحظ و عصره، كما تناولت البيان و التبيين ،أما في الفصل الأول الذي عنونته بالعلامة عند الجاحظ،تحدثت فيه عن العلامة بمفهومها العام ،ثم تطرقت إلى أنواعها،و بعدها تكلمت عن أهم الأسس التي اعتمدها الجاحظ ،كما حاولنا إثبات تواضعية اللغة عنده،أما الفصل الثاني عنونته بآليات إنتاج العلامة اللغوية ،حاولت من خلاله أن أبين أهم الآليات التي تعمل بها اللغة.

الكلمات المفتاحية: سيمياء – علامة – دال – مدلول – علاقات استبدالية و تركيبية – مواضعة .

Résumé en français

La recherche dans l'héritage arabo-islamique, et sa comparaison avec les méthodes occidentales contemporaines notamment dans le domaine des sciences humaines, n'est pas aussi facile. Sur ce, nous avons essayé dans ce mémoire, d'identifier les traits de la pensée sémiotique chez " Al Djahidh" d'après son ouvrage intitulé " Al bayane wa tabyine". J'ai établi mon mémoire en deux chapitres. Dans le premier chapitre préliminaire j'ai abordé le concept de la sémiotique, la vie d'Al Djahidh et son époque ainsi que son ouvrage " Al bayane wa tabyine", quant au deuxième chapitre intitulé " le signe selon Al Djahidh " j'ai abordé le signe dans son concept général et ces différents types signes, puis j'ai parlé des principes fondés par Al-Djahidh. Par la suite j'ai tenté de prouver qu'Al-Djahidh se base énormément sur la convention linguistique.Quant au deuxième chapitre intitulé " mécanismes de production du signe linguistique" il est consacré à l'identification des règles essentielles selon lesquels la langue fonctionne.

Mots clés

Sémiotique, signe, convention, signifiant, signifié, relations paradigmatiques et syntagmatiques.

مقدمـــــــة

بسم الله الرحمـــــــــــــن الرحيـــــــــــــم

الحمد لله الذي له الحمد كله والصلاة و السلام على سيد الخلق وعلى آله وصحبه أجمعين.

إن البحث في التراث العربي الإسلامي ليس بالأمر الهين خاصة إذا كان مع علم بارز كالجـــاحظ الذي ذاع صيته عبر الأزمان والأجيال،نظرا للمكانة التي حفل بها ،وهذا راجع للقدرة العقلية الـــتي مكنته من إنتاج هذا الكم الهائل من المؤلفات في مختلف الموضوعات مما جعلته محط أنظار الباحثين و الدارسين .

ومن بين القضايا التي اهتم بها الجاحظ القضايا ذات الطابع اللغوي البحت ،والتي لفتت انتباهي من خلال كتابه البيان والتبيين، الذي قرأته مرات و مرات ، فوجدت فيه مـــا يـــدعو إلى البحـــث والتنقيب ،إنها العلامة على وجه العموم والعلامة اللغوية على وجه الخصوص ،فبدت لي هذه المسألة في غاية الأهمية .

لقد حاولنا في مرات عديدة البحث عن ملامح التفكير السيميائي اللغوي ،وإن كان استخدام الجاحظ لهذا المفهوم بعيدا عن المصطلح الحديث الذي يبعد عنه بنحو اثني عشر قرنا ،إلا أن ذلك لم يثن من عزيمتنا ،بل زادنا ذلك حيوية وإرادة من أجل إثبات أن ما توصل إليه العقل العربي لم يكـــن بالأمر السهل ،كما لم يكن ببعيد عن التفكير الغربي الحديث ،بل وجدنا الجـــاحظ في كـــثير مـــن الأحيان يقترب من التفكير الغربي ،وربما الفارق بينهما يرجع إلى درجة النضج العلمي والمنهجي ليس إلا .

ما قلناه سلفا ليس حطا من قيمة وقدر العلماء الغربيين ،فما توصلوا له يعتبر عطـــاء واكتشـــافا عظيما ينم عن جهد وريادة.

كما أن إثبات تميز العقل العربي ليس هو الهدف الوحيد الذي نصبو إليه ،وإنمـــا نريـــد أيضـــا التوصل إلى بعض مكونات النظرية السيميائية الحديثة ،فهذا قد يغنينا يوما ما عن هذه التبعية الفكرية للغرب إن استطعنا أن نتخلص من ذلك طبعا.

إن الحديث عن التراث العربي الإسلامي و عن مكانته في ظل المعطيات المعاصرة ،أصبح أمـــرا ضروريا بل في غاية الأهمية ،وذلك من أجل اكتشاف ما احتواه هذا التراث من نبوغ معرفي و فكري متميزين ،وبالتالي إعادة صياغته صياغة تليق بمقامه.

لقد قامت دراستنا هذه من أجل الكشف عن ملامح الفكر السيميائي اللغوي عند الجاحظ من خـــلال كتابه البيان و التبيين ،فرأينا أنه لابد من بحث عربي معاصر يستجلي مكامن التراث العـــربي و استثمار قدراته العلمية في فكر عربي حداثي أصيل .

انطلاقا من هذا الاهتمام حاولت أن أضع خطة البحث التي تتمحور حول محاولة البحـــث عـــن ملامح التفكير السيميائي في اللغة عند الجاحظ،و قد استعنت في ذلك بما جادت به السيميائيات من مفاهيم ونظريات حديثة.

لقد حاولنا الاعتماد على كتاب رأينا أنه يزخر بنصوص تحمل في طياتها بعـــض التلمـــيح إلى تفكير الجاحظ في العلامة اللغوية ، إنه" **البيان والتبيين** "،وهو كتاب مطبوع في أربعة أجزاء، حققه وشرحه شيخ المحققين ،عبد السلام محمد هارون، برعاية دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

و هناك كتب تراثية و دراسات أخرى حديثة اعتمدها في هذه البحث نذكر منها:

-الجاحظ ، الحيوان ،تح:عبد السلام محمد هارون

-رسائل الجاحظ،،تح: عبد السلام محمد هارون

– عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز،تح:محمد التونجي

– ابن جني ، الخصائص،تح:عبد الحكيم بن محمد

– حنون مبارك ، دروس في السيميائيات

– حميد البياتي سناء ، قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم

– خليل عبد النعيم ، نظرية السياق بين القدماء و المحدثين

– يوسف أحمد ، الدلالات المفتوحة،مقارنة سيميائية في فلسفة العلامة

– ميشال أريفيه، السيميائية أصولها وقواعدها، تر: رشيد بن مالك

– ثابي قدور عبد الله، سيميائية الصورة (مغامرة سيميائية في أشتـــهر الإرساليات البصرية في العـــالم و غيرها من الدراسات .

إن اختيارنا للجاحظ و كتابه البيان و التبيين ،لم يكن اختيارا عفويا بل عن وعي و قصد و ذلك للأسباب التالية :

أولا:عطاء الجاحظ العلمي المتميز خاصة إذا تعلق الأمر باللغة و الأدب،هذا ما أهله فعلا لأن يكون معلم العقل و الأدب بلا منازع في القرن الثاني للهجرة حيث بلغت علوم المسلمين أوجها نضجا و غزارة .

ثانيا: الطاقة المتجددة في كتابات الجاحظ إنها معين لا يكاد ينضب من الطاقة و الحيوية.

ثالثا : البيان و التبيين يعتبر من أحسن ما كتب الجاحظ ،خصوصا إذا تعلق الأمر بالقيمة العلمية و الأدبية كما أني وجدت فيه مادة علمية تستحق الدراسة .

أما الحدث عن الصعاب و العقبات التي اعترضتنا أثناء هذا البحث ،فهي كثيرة ،كما أنه لا يخفى على كل باحث أنه لكل بحث جاد مثل هذه الصعاب و العقبات ،فالباحث لا يحس بلذة البحث إذا لم تواجهه مثل هذه الصعاب و العقبات ، مثل قلة المراجع و ندرتها بعض الأحيان ،و عناء السفر للبحث عنها أحيانا أخرى ،عملية القراءة التي تعتبر عملا مضنيا، وهنا لا أتحدث عن القراءة العادية، بل القراءة المتقصية و التي يهدف من ورائها الباحث الوصول إلى شيء ما ، فهناك نصوص يكتنفها بعض الغموض تدفع الباحث لإعمال فكره أكثر فأكثر .

لقد اعتمدنا في ذلك على منهجين رأينا أنهما من أهم المناهج لمثل هذه الدراسات :الأول منهج وصفي تحليلي و الثاني مقارن .

فالمنهج الوصفي هو أكثر المناهج الحديثة أهمية في دراسة اللغة و وصفها في العصر الحديث ،بعد أن أزاح المنهج التاريخي القديم الذي استقطب اهتمام الباحثين ردحا من الزمن .

أما وصفه بالتحليل فذلك يعني أنه منهج بحث يقوم على عزل أجزاء الظاهرة بعضها عن بعض عزلا عقليا ،أو هو وسيلة من أجل إثبات قضية عقلية معينة عن طريق تأليف سلسلة من القضايا أولها القضية المراد إثباتها ، و أثر القضية المعلومة[1].

أما المنهج المقارن حتى نزيد الدراسة مزيدا من الدقة و الملاحظة ،و لأجل ذلك يحتاج الباحث إلى عملية المقارنة ،فالجاحظ له تصور لبعض المفاهيم حاولنا مقارنتها بتصورات الدرس السيميولوجي الحديث .

ينظر: جميل صليبيا ، المعجم الفلسفي ، ،دار الكتاب اللبناني ،بيروت لبنان ،ج1،ص ص254-255 .

إن عملية الوصف والمقارنة بين النصوص تتطلب من صاحبها الإلمام بهذه المناهج إلماما كبيرا يكون على أكبر قدر من الوعي و الفهم ،حتى تكون النتائج التي يود التوصل إليها سليمة أو قريبة من الصحة .

وعليه قد جاء عنوان بحثنا على النحو الآتي:

- ملامح التفكير السيميائي في اللغة عند الجاحظ -

من خلال البيان والتبيين

وقد تضمن البحث فصلا تمهيديا و فصلين وخاتمة ،و ها هي الخطة التي اتبعناها لتناول هذا الموضوع:

- الفصل التمهيدي

حاولنا من خلاله أن نعطي لمحة عامة لعلم السيمياء باعتبار ه الأرضية التي سنبني عليها عمل بحثنا،أي استثمار أهم ما جادت به من مفاهيم و نظريات ،كما تحدثنا عن البيئة الاجتماعية و السياسية و الثقافية التي عاش فيها الجاحظ وكانت سببا في شحذ فكره ،وبعدها انتقلنا إلى الكلام عن كتاب البيان و التبيين التي اعتمدناه في بحثنا هذا ،حيث جاء هذا الفصل في ثلاثة مباحث ،وهي على النحو الآتي:

1-علم السيميائيات

2-عصر الجاحظ وحياته

3-كتاب البيان و التبيين

-الفصل الأول كان عنوانه:**العلامة عند الجاحظ**

وقد حاولنا من خلاله التوصل إلى مفهوم العلامة في عمومها ،وكما نقبنا عن التقسيم الذي وضعه لها ،وبعدها تكلمنا عن أهم الأسس التي تصور بها العلامة ،وذلك من خلال المباحث التالية :

1- أسس تصور العلامة عند الجاحظ

2- مفهوم العلامة عند الجاحظ

3 - مبدأ المواضعة اللغوية عند الجاحظ

4- أنواع العلامة عند الجاحظ

-الفصل الثاني كان عنوانه: **آليات إنتاج العلامة اللغوية عند الجاحظ**

حاولنا من خلاله الكشف عن القوانين التي تعمل بها اللغة من أجل إنتاج رسالة ذات دلالة واضحة ،وقد جاء هذا الفصل ممثلا في أربعة مباحث ،وهي:

1-مفهوم العلامة اللغوية

2-علاقة العلامة اللغوية بمفهوم النظام

3-العلامة اللغوية من خلال العلاقات الاستبدالية والتركيبية

4-السياق والمقام أثرهما في إنجاز الدلالة

وفي ختام هذا البحث لا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل لأستاذي الفاضل الدكتور :عبد المجيد عيساني الذي كان طيلة فترة البحث بمثابة أخ وصديق، فقام بتوجيهي وترشيد خطاي،كما لم يبخل علي في تقويم مسار البحث ،مما أبعدني عن كثير من الهنات والهفوات حتى وصل إلى الصورة التي هو عليها ،ولا أنسى في مثل هذا المقام كل أساتذة قسم اللغة و الأدب جامعة ورقلة ،خاصة الذين أخذت عنهم العلم و تواضع الأخلاق ،و إلى أستاذي الكريم الطيب دبة على ما قدمه لي من نصائح و توجيهات،وكما أشكر كل من قدم لي يد المساعدة من قريب أو من بعيد في إنجاز هذا البحث .

الطالب :ابن شتوح عامر

الأغواط يوم:2009/05/15

الفصل التمهيدي

أولا – ماهية السيميائيات

ثانيا – عصر الجاحظ وحياته

ثالثا – كتاب البيان والتبيين

أولا : ماهية السيميائيات

إذ تأملنا هذا الكون بمختلف ظواهره ، وجدناه نظاما من العلامات فسلوكنا وملابسات الحياة الاجتماعية والفكرية وملابسات العلاقات وملابسات الإنتاج والتبادل لا تخلو من استخدام العلامة فكل الوجود مبني على أساسها وما فيها من دلالة ونحن نستخدم العلامات اللغوية والتي يبدأ اكتسابها مع نشوء الحياة الواعية ثم علامات الكتابة وعلامات التحية، والتعرف على الآخر، ثم العلامات التي تنظم المرور والعلامات الخارجية التي تشير إلى الظروف الاجتماعية وعلامات العبادة والشعائر وعلامات الفن ... فالعلامة تلعب دورا أساسيا هو التمثيل في مسرح الحياة الاجتماعية ، فهي تحل محل شيء آخر وتستدعيه باعتبارها بديل عنه.[1]

إن دراسة النظام الإشاري هي دراسة قديمة جدا إن لم أقل قديمة قدم الكون نفسه إلا أن المنطلقات النظرية لهذه الدراسة اختلفت من زمن إلى آخر ومن أمة إلى أمة أخرى وذلك لاختلاف الثقافات والمراحل التاريخية، وقد وصلت إلينا بعض التأملات والأفكار السيميولوجية من حضارات قديمة كالحضارة الصينية والهندية واليونانية والرومانية والعربية إلا أن هذه الأفكار والتأملات بقيت في إطار التجربة الذاتية و لم تدخل في إطار التجربة العلمية الموضوعية.

فلم يكن علم السيمياء وليد العصر الحديث بل هو علم قديم النشأة ،فقد اهتدى القدماء من عرب وعجم بهذا الجانب من علم اللسانيات من أكثر من ألفي سنة، فأفرد الفيلسوف أفلاطون هذا الموضوع في كتابه "cartyle" وأكد أن للأشياء جوهرا ثابتا وأن الكلمة أداة للتواصل وبذلك يكون بين الكلمة ومعناها، أي بين الدال (signifiant) والمدلول (signifie) تلاؤم طبيعي (justesse naturelle) فلهذا كان اللفظ يعبر عن حقيقة الشيء وقد أشار أفلاطون إلى ما تمتاز به الأصوات اللغوية من خواص تعبيرية، أي العلاقة بين الدال والمدلول و لذلك كانت الأصوات أدوات تعبير عن ظواهر عديدة [2] تشترك فيها لغات البشر باعتبارها ظاهرة إنسانية.

ونظرا لما تحتله العلامة بنوعيها من أهمية كبرى فقد حق لها أن تخص بعلم يدرسها من مختلف جوانبها، إنه علم السيميائيات.

---

1)- ينظر: سيزا قاسم، نصر حامد أبو زيد، مدخل إلى السيميوطيقا[مقال] سيميولوجيا اللغة، لإميل بنفينيست، تر: سيزا قاسم ،ط1 ،الدار البيضاء 1986،ج1،،ص ص16. 1 2

2) - ينظر بلقاسم دقة [مقال]علم السيمياء في التراث العربي

www.ahlahaleeth.com/vb/printth read.php .?+=2315 ، 15-08-2007

1-تعريف السيميائيات

لقد أصبح من الواضح اليوم أن السيميائيات علم إن لم أقل منهجا واسع المجالات والاتجاهات لتعدد العلامات في هذا الكون الرحب فاختلف العلماء والمنظرون في تعريفها تعريفا دقيقا، إلا أنهم يتفقون عموما على أنها العلم الذي يدرس العلامات بشتى أنواعها.

يعتبر فرد يناند دي سوسير[1] أول من أشار إلى هذا العلم أثناء دراساته اللغوية حيث نجده يقول:" يمكننا إذن تصور علم يدرس حياة العلامات في صدر الحياة الاجتماعية، وهو يشكل جزء من علم النفس الاجتماعي وبالتالي من علم النفس العام إننا ندعوه بالسيميولوجيا (sémiologie) تلك التي تدلنا على كنه وماهية العلامات،وما الألسنية إلا جزء من هذا العلم العام"[2]

يرى ش.س: بيرس[3] أن السيميائيات والمنطق هما وجهان لعملة واحدة قائلا: "ليس بإمكاني أن أدرس أي شيء في هذا الكون كالرياضيات والأخلاق والميتافيزيقا والجاذبية الأرضية والديناميكية الحرارية والبصريات والكيمياء وعلم التشريح المقارن، علم الفلك، وعلم النفس، والصوتيات، وعلم الاقتصاد وتاريخ العالم، والكلام والسكوت والرجال، والنساء، والنبيذ، وعلم القياس، وعلم الموازين إلا أنه نظام سيميائي" [4] كما تجدر الإشارة إلى أن بيرس أطلق على السميائيات مصطلح السميوطيقا (sémiotique) ولقد استعار هذا المصطلح من التسمية التي أطلقها جون لوك على العلم الخاص بالعلامات والدلالات المنبثقة عن المنطق، وأنفق بيرس حياته في تطوير هذا المفهوم ويشهد الكم الهائل من ملاحظاته على الجهد العنيد الذي بذله في تحليل مفاهيم خاصة بالمنطق

---

1)- فرديناند دي سوسير (ferdinand de soussure) : اللغوي السويسري مؤسس علم اللغة الحديث (اللسانيات) ولد سنة 1857 بجنيف وفي سنة 1881 كلف بالتدريس بمعهد الدروس العليا بباريس مدة 10 سنوات وفي سنة 1891 عاد إلى جنيف وشرع في التدريس بجامعتها توفي سنة 1913 من مؤلفاته مذكرة في النظام البدائي في اللغات الهندوأوروبية وأطروحة تحت عنوان استعمال المضاف المطلق في اللغة السنسيكريتية وبعد وفاته طبع له تلامذته محاضراته في كتاب تحت عنوان دروس في اللسانيات العامة (ينظر: أحمد حساني، مباحث في اللسانيات، و م ج الجزائر، 1994، ص ص 30 ،32)

2) – فرد يناند دي سوسير، محاضرات في الألسنية العامة، تر: يوسف غازي ومجيد النصر،المؤسسة الوطنية للطباعة 1986، ص27.

3) – شارل ساندرس بيرس (charles sanders peirce) : فيلسوف أمريكي ولد سنة 1839 يعد أحد المؤسسين لعلم العلامات ،كان عالما موسوعيا ،فقد كان رياضيا فلكيا و كيميائيا بالإضافة إلى ولعه باللغة و الأدب توفي سنة 1914 ينظر: سيزا قاسم، نصر حامد أبو زيد، مدخل إلى السيميو طيقا (مقال علم العلامات " السيميوطيقا " ف ج غزول) منشورات عيون ، الدار البيضاء ، 1987 ، ص 16/1 .

4)- L.S , pierce, ecrit sur le signetra comm-jaque delledale, édition de seuil, paris, 1978,p:121.
وللتوسع ينظر:فريد أمعضشو[مقال]المنهج السيميائي www.odabasham.net/show.php?sid=11078 بتاريخ:19-17-2008

والرياضة والفيزياء في إطار السيميوطيقا (السيميائيات)1 ويعرفها ت، تـــودوروف و أ.د يكـــرو في معجمهما كما يلي:"السيميائية أو السيميولوجيا هي علم العلامات" 2 أما جورج مونان يعرفها بأنها "العلم العام لجميع أنظمة التواصل" 3 ويعرفها آخرون بشكل أكثر سعة وشمولية بأنها"علـــم يـــدرس انساق الإشارات:لغات، أنماط إشارات المرور... 4 ومن هنا تبدأ السيميائيات في علاقاتهـــا بـــالعلوم والمعارف الإنسانية أشبه بالمنطق الذي هو كذلك موضوع من أجل العلوم، فإن كـــان يعـــد الأداة العقلية التي يقيس بها العالم مظاهر الطبيعة والوجود،بناء على أن الطبيعة كلـــها في متنـــاول العقـــل باستثناء المصادفات فإن السيميائيات هي ذلك المنهج القائم على مبدأ هذه الظواهر و بالاستنتاج و الاستدلال الذي هو مادة المنطق ومجـــراه .

2-لمحة عامة عن تاريخ السيميائيات

إن المتأمل في تاريـــخ السيميائيات يجزم أنـــها ليست حديثة النشأة، بل أن لها مسارا تاريخيا قديما قدم تاريخ البشرية، رغم أنها لم تظهر كعلم أو كمنهج علمي له أسســـه وقواعـــده وروادة إلا مؤخرا، فرَصد هذا المسار بكيفية دقيقة من الأمر الصعب وهذا لتداخلها مـــع كـــثير مـــن العلـــوم والمعارف (الفلسفة،علم النفس،علم الاجتماع،اللسانيات،علم الفلك...).

ومصطلح سيميوطيـــقا (semiotitre)، نجـــده عنـــد أفلاطـــون إلـــى جانب نحـــو (grammatike)[5] ،كما أن الرواقيين هم أول من قال بأن العلامة دالا ومدلولا، ثم يأتي بعد ذلك القديس أوغسطين الذي أرسى القواعد الأولى لنظرية التأويل، وهكذا بقي التأمل في العلامات أهـــم ما يميز بحوث ودراسات القرون الوسطى، إلى غاية القرن السابع عشر حيث ظهر هـــذا المصـــطلح (semiotic) مع جون لوك وفي القرن الثامن عشر ألف الفيلسوف سورل دراسة كـــبيرة بعنـــوان (semiotic) [6]أما عند العرب فإن علم السيميائيات لم يكن علما موجودا بصفة واضـــحة إلا أنـــه كانت هناك إشارات لهذا المصطلح سيمياء وسيماء وسيميا لدى كل من ابن خلـــدون وابن سينـــا

---

1)- ينظر: مدخل إلى السيميوطيقا،ص16.

2)-ينظر: خيرة عون، [مقال] السيميائية والسيميولوجيا: مجلة العلوم الإنسانية، جامعة قسنطينة 2002، ص 204.

3)- Georges munin: introduction a la semiologie de minuit, 1970 p/7

نقلا عن:الطيب دبة ،التجليات السيميائية عند أبي حيان التوحيدي ،بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير ،جامعة الجزائر ،1997م-1998م

4)-بيار جيرو : علم الإشارة (السيميولوجيا) ، تر : منذر عياشي ، دار طلا سدار ، دمشق ، ط1 ، 1988 ، ص23 .

5)- محمد نظيف ، ما هي السيميولوجيا ، دار إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، المغرب ط 1- 1994 ،ص 37

6)- ميشال آر يفيه، السيميائية أصولها وقواعدها، تر: رشيد بن مالك، منشورات الاختلاف، ص ص 22-23.

ومحمد شاه بن المولى الغناوي، ومما يلاحظ على هذه الإشارات أنها تكاد تصب في قالب واحد هو علم الروحانيات، وأسراره وأحيانا مرتبطة بعلم التأويل والدلالة [1] .

وبعد أن أرسى بيرس قواعد السيميائيات كعلم إلى جانب العالم اللغوي دي سوسير، تواصلت أبحاث تلاميذ كل منهما ، وانتقلت أعمال بيرس إلى أوروبا مع الأستاذ جيرار دولودال مما فتح المجال واسعا أمام مولينو ليؤسس سيميولوجيا الأشكال الرمزية، بعد ذلك عرفت الحركة السيميائية تطورا كبيرا خاصة بعد أن نشر رولان بارت كتابيه "الأساطير-1957" و "عناصر السيميولوجيا" 1963 ثم انعقاد الندوة العالمية حول السيميائيات بباريس التي تأسست على إثرها "الجمعية العالمية للسيميوطيقا" التي آثارت استعمال مصطلح sémitique على حساب sémiologie مع الاحتفاظ بهذا الأخير لخصوصيته لدى الفرنسيين ثم تشعبت مجالات واتجاهات السيميائيات فظهرت مدارس مختلفة كالمدرسة الفرنسية والإيطالية...وغيرها مما سيأتي ذكره فقد حضي فكر العلامة في تراث البشرية قاطبة بمكانة خاصة وبأهمية كبيرة على درجات متفاوتة بين الأجيال، والعصور، وتعاقب المعارف والحضارات لارتباطه بأبرز مظهر من مظاهر المجتمع الإنساني، وهو مظهر الاتصال و التفاهم الذي لا قيمة لحياة البشرية من دونه،فارتبط مفهوم العلامة بمباحث اللغة ودروس المنطق سواء عند المسلمين الذين انطلقوا في دراستهم من اهتماماتهم بالنص الشرعي إذ منذ نزول القرآن الكريم كأن المتأمل في العلامة واعتبار دلالتها بالنظر والتدبر، والتفكر ويتضح ذلك من خلال التوجيهات الربانية القرآنية كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[2]وقوله أيضا:﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[3].و في رحاب هذا التوجه القرآني كان التعامل مع العلامة عندهم من أجل تفسير دلالتها الكونية و الروحية و الاستدلال بحاضرها عن غائبها [4].

3- موضوع السيميائيات:

من خلال ما ذكرناه من تعريفات نجد أن جميعها يتفق على أن موضوع السيميائيات هو العلامة سواء كانت لغوية أو غير لغوية من حيث طبيعتها والكشف عن القوانين المادية والنفسية التي تحكمها

---

1)- السيميائية أصولها وقواعدها، ص23 وما بعدها.

2)- الحجر /75 .

3)- الرعد/04.

4)- ينظر : مباحث في اللسانيات،ص139 .

و" قد لاحظ جان مارتيني (j.Martiny) أن مختلف التعاريف حول السيميائيات تتضمن مصطلح (Signe) علامة وهذا مؤشر واضح على أن موضوع السيميائيات [1]هو العلامة "[2] ويعرف دي سوسير العلامة على أنها كيان نفسي ذو وجهين يشبهان وجهي الورقة ومرتبطان ارتباطا وثيقا ويتطلب أحدهما الآخر [3] مع إقصاء المرجع وهذا لا يعني أن سوسير قد أهمله فقد كان اهتمامه منصبا على دراسة شكل المادة وليس المادة في حد ذاتها، فكان يهدف إلى دراسة اللسان البشري عامة، والمرجع في نظره منطبع في الذهن في شكل تصور والعلاقة الموجودة بين الدال والمدلول اعتباطية ما عدا الكلمات المحاكية للطبيعة onomatopees وصيغ التعجب [4]، التي يراها دي سوسير لا تكاد تخلو من الاعتباطية رغم استنادها عند الوضع على علاقة علية.

أما بالنسبة لبيرس فمن الصعب أن نفهم دراسته للعلامة لأنها وردت في سياق منطقي دقيق يعتمد فيه على كثرة التعريفات والتقسيمات فهو"لم يكن بوسعه أن يدرس أي شيء مثل الرياضيات و الأخلاق و الميتافيزيقا و الجاذبية و الاقتصاد و تاريخ العلوم ... إلابوصفه دراسة سيميوطيقية"[5]. فالعلامة عنده تشمل مختلف الظواهر و العوالم كيفما كانت طبيعتها .

فالعلامة البيرسية قد تكون لغوية أو غير لغوية وهي ثلاثة أنواع: القرينة index: ويعرفها بيرس بأنها علامة تحيل إلى الشيء الذي يشير إليه، لوقوع هذا الشيء عليها في الواقع، والعلاقة هنا سببية أي ليست اعتباطية، فالدخان يعني النار الأيقونة icône: ويحكمها مبدأ التشابه بين الدال والمدلول،ومن أمثلة بيرس عليها الصورة الفوتوغرافية، الرمز symbole :والعلاقة هنا عرضية محضة وغير معللة يقول بيرس"الرمز علاقة تحيل إلى الشيء الذي تشير إليه بفضل قانون غالبا ما يعتمد على التداعي بين أفكار عامة وهذا النوع هو العلامة الحق عند بيرس"[6]ويقابل هذه الأصناف الثلاثة للعلامة عند بيرس أصناف الدلالات عند المفكرين العرب حين يقسمون الدلالة إلى طبيعية (أيقونة) وعقلية (قرينة) وتواضعية (رمز).

---

1)- من بين المصطلحات المرادفة لمصطلح السيميائيات و المستعملة في كثير من كتابات اللغويين العرب المحدثين : علم العلامات – علم الإشارة – علم الدلائل – السيميائية – الاعراضية – السيميوطيقية (ترجمة لـــ (semiotique) و غيرها ...

2)- ينظر: محاضرات في الألسنية العامة تر : يوسف غازي ومجيد النصر، [مقال] عادل فاخوري، حول إشكالية السيميولوجيا، ص192.وجميل حمداوي[مقال]مدخل إلى المنهج السيميائي www.jamilhamdaoui.net/plugins/content/content.php?content.84 19-07-08

3)- ينظر: محاضرات في الألسنية العامة،ص88.

4)- ينظر:جميل حمداوي[مقال]السيميوطيقا و العنونة،مجلة عالم الفكر، المجلد 25، العدد 3، مطابع السياسة – الكويت ،مارس 1997، ص 88.

5)- حنون مبارك ،دروس في السيميائيات ،دار توبقال للنشر،المغرب،ط1، 1987م

6)-محمد حسن عبد العزيز، سوسير رائد علم اللغة الحديث، كلية العلوم، دار الفكر العربي، 1990 ،ص 28 .

رابعا–الاتجاهات و المدارس السيميائية

من خلال اللمحة التاريخية السالفة الذكر تعتبر السيميائيات علما حديثا بالمقارنة مع غيره من العلوم، و لم تظهر ملامحه المنهجية إلا مع بداية القرن العشرين، وقد كانت ولادتها مزدوجة كما يقول مارسيلود أسكال ولادة أوروبية مع سوسير وولادة أمريكية مع شارلز بيرس".[1] وقد أخذت السيميائيات بعد دي سوسير توجها جديدا تمثل في بروز نمطين كبيرين سيميائيين هما سيميائيات التواصل، وسيميائيات الدلالة، وتفرع هذان الاتجاهان عن كتاب سوسير، "محاضرات في الألسنية العامة" وكانا تمهيدا لما جاء بعدهما من مناهج وتوجهات مختلفة اختلفت باختلاف مفهومها للعلامة ودراستها لهما.

سيميولوجيا التواصل: sémiologie de la comminication

"يمثل هذا الاتجاه كل من بريتو preto ومونان mounin وبويسنس buyssens ظلت هذه السيميائيات تقتفي أثر سوسير من حيث أنها تؤكد الجانب القصدي والتواصلي للعلامة، وأن هذا التواصل هو انعكاس لطبيعة اللسان نفسه من حيث هو نظام تواصلي".[2]

سيميائيات الدلالة: sémiologie de la signification

يعتبر رولان بارت R.barthes خير من يمثل هذا الاتجاه فالبحث السيميائي لديه هو دراسة للأنظمة الدالة، أما عناصرها فقد حددها في كتابه "عناصر السيميولوجيا" وهي منتقاة على شكل ثنائيات من الألسنية البنيوية وهي: اللغة والكلام، الدال والمدلول، المركب والنظام، التقرير والإيحاء (الدلالة الذاتية، الدلالة السيميائية)[3].

وقد انتقلت السيميائيات من تبعيتها للسانيات التي تحكمها في مختلف العلوم و إنتاجها للأدوات المعرفية تنظر من خلال مختلف الممارسات الرمزية للإنسان باعتبارها أنشطة رمزية وأنساق دالة، إلى مختلف العلوم و المعارف فتعددت اتجاهاتها ،وبذلك وجدت لنفسها موقعا ابستيمولوجيا هاما ، فمنذ أكثر من نصف قرن شهدت الدراسات السيميائية انتشارا واسعا في كافة الاتجاهات و مختلف الميادين .

وهكذا نجد أنه أصبح للسيميائيات اتجاهات متعددة فمثلا محمد السرغيني يحددها بثلاث

---

1)- محمدٌ إقبال عروي[مقال]السيميائيات و تحليلها لظاهرة الترادف في اللغة و التفسير ،مجلة عالم الفكر،الكويت،مج24، ع3،دت،ص 190.

2)- مباحث في اللسانيات ، ص49.

3)- [مقال] السيميوطيقا و العنونة،مجلة عالم الفكر، ص87.

اتجاهات متعددة جاءت على النحو الآتي:

الاتجاه الأمريكي، الاتجاه الفرنسي، الاتجاه الروسي بالإضافة اتجاه رابع تمثل في الاتجاه الإيطالي، أما مارسلو داسكال فهي عنـــده: سيميائيات التواصل، سيميائيات الدلالة، سيميائيـــات التعبير عن الفكر [1].

1- الاتجاه الأمريكي

ارتبط هذا الاتجاه بالفيلسوف المنطقي شارل ساندرس بيرس والسيميوطيقا عنده بحث مـــوسع يهتم بالدلائل اللسانية وغير اللسانية وأكـــد بيرس أنه لا يمكن أن يدرس أي شيء مهما كـــان إلا بـــوصفه دراسة سيميوطيقية (سيميائية) وسيميوطيقا بيرس ذات وظيفة فلسفية منطقية لا يمكن فـــصلها عن فلسفته التي سماهـــا الاستمرارية والـــواقعية والتداولية ويمكن اعتبار سيميوطيقا بيرس سيميائيات الـــدلالة والتواصل في آن واحـــد كمـــا أنها اجتماعية وجدلية تعتمد على أبعاد ثلاثة وهي: البعد التركيبي، والبعد التداولي، والبعد الدلالي [2]

2- الاتجاه الفرنسي:

أ- المدرسة السويسرية: فيرديناند سوسير (1913/1857) مؤسس اللسانيات والسيميائيات فـــالسيميائيات عنده تدرس الأنساق القائمة على اعتباطية الدليل، ومن ثم لها الحق في دراسة الدلائل الطبيعية أي أن لها موضوعَين رئيسيين :الـــدلائل الاعتباطية ، والدلائـــل الطبيعية وعلاوة على ذلك فإنها لكي تحدد استقلالها ومجالها الابستيمـــولوجي ، وتكـــون مفاهيمهـــا وتصوراتها النظرية و مصطلحاتها الإجرائية، ما عـــليها إلا أن تستعـــير من اللسانيـــات مبادئها ومفاهيمهـــا كاللسان والكـــلام والسنكروني[3] والدياكوني"[4]

ب – مدرسة باريس السيميوطقية

تمثل هذه المدرسة كل من غريماس greimas وميشيل أريفي m.Arrive وكلود شابـــرول

---

1)-ينظر: :[مقال] السيميوطيقا و العنونة ،مجلة عالم الفكر ، ص83.

2)- ينظر:نفسه ، ص84.

3)- السنكروني: النظرة الآنية التي يهتم فيها الدارس باللغة في حالة سكونية أي حالة معينة وهو ما يسمى (synchronique) مكونة من syn بمعنى (في) و chronique بمعنى (زمن) وهذا يعني دراسة اللغة كما تبدو في منطقة معينة في الزمن وهو ما يقابل علم اللغة الوصفي.

4)- الدياكروني:النظرة التعاقبية للغة التي تعتمد على نظام اللغة في حالة من تطورها والمقصود بها الدراسة الدياكرونية(diahronique) مكونة من dia بمعنى (يكبر) chronique بمعنى (زمن).(ينظر:د/ التواتي بن التواتي،مفاهيم في علم اللسان،ط1 ،2006، ص ص82-83)

c.Chabrol، وجان كلود كوكي ويوضح أعمال هذه المدرسة الكتاب القيم الذي صدر تحت عنوان"السيميوطيقا"وقد سعت هذه المدرسة بمفهوم السيميائيات الذي لا يتجاوز أنظمة العلامات إلى مصطلح السيميوطيقا الذي يقصد به علم الأنظمة الدلالية.وقد اعتمدت هذه المدرسة على أعمال وأبحاث سوسير و هيلمسليف وحتى بيرس حيث كان اهتمام أصحاب هذه المدرسة قائما على تحليل الخطابات والأجناس الأدبية من منظور سميوطيقي قصد استكشاف القوانين الثابتة المولدة لتمظهرات النصوص العديدة [1]

ج- اتجاه السيميوطيقا الرمزية

سيميائيات هذه المدرسة تسمى(نظرية الأشكال الرمزية)حيث استلهم كلا من مولينو وجان جاك ناتيي نظرية بيرس الأمريكي موسعة عن العلامة وأنماطها كالإشارة (القرينة) والأيقونة والرمز،وفلسفة كاسير الرمزية التي تنظر للإنسان بأنه حيوان رمزي كما تدرس الأنظمة الرمزية محل العلامات في الاتجاهات والمدارس الأخرى [2].

د-الاتجاه المادي: خير من يمثل هذا الاتجاه الباحثة جوليا كريستيفا التي تستند في بحثها التوفيق بين اللسانيات والتحليل الماركسي لإيجاد التجاور بين الداخل والخارج من المعطى التجريبي الداخلي، وقد وظفت كريستيفا مصطلحات ذات بعد ماركسي اشتراكي كالمنتج والممارسة الدالة والمنتوج على عكس المصطلحات الموظفة في الفكر الرأسمالي كالمبدع والإبداع الفني [3].

3- الاتجاه الروسي

تعتبر الشكلانية الروسية التمهيد الفعلي لدراسات السيميائية في غرب أوروبا واسمها الحقيقي جماعة ololaz ، وكانت أبحاثها تطبيقية ونظرية في آن واحد ومن نتائج هذه الأبحاث ظهور مدرسة تارتو ومن أعلامها البارزين: لوري لوتمان وتودروف وقد جمعت أعمال هؤلاء في كتاب جامع تحت اسم "أعمال حول أنظمة العلامات" واهتمت هذه المدرسة بسيميولوجيا الثقافة، وأهم ما تتميز به الشكلانية الروسية:

- التوفيق بين أراء بيرس و سوسير حول العلامة.

---

1)- ينظر :[مقال] السيميوطيقا و العنونة ،مجلة عالم الفكر ،ص91 .

2)- ينظر نفسه ، ص 92.

3)- ينظر :نفسه، ص 92.

- استعمال مصطلح السيميوطيقا بدل السيميولوجيا.
- الاهتمام بالسيميوطيقا الابستمولوجية الثقافية [1].

4- الاتجاه الإيطالي

يمثل هذه الاتجاه كل من أمبيرتو إيكو، وروسي لاندي اللذين اهتما كثيرا بالظواهر الثقافية باعتبارها موضوعات تواصلية، وأنساق دلالية على غرار سيميوطيقا الثقافة في روسيا.[2] ويمكن أن نوضح الاتجاهات و المدارس السابقة الذكر بمخطط توضيحي على النحو الآتي [3].

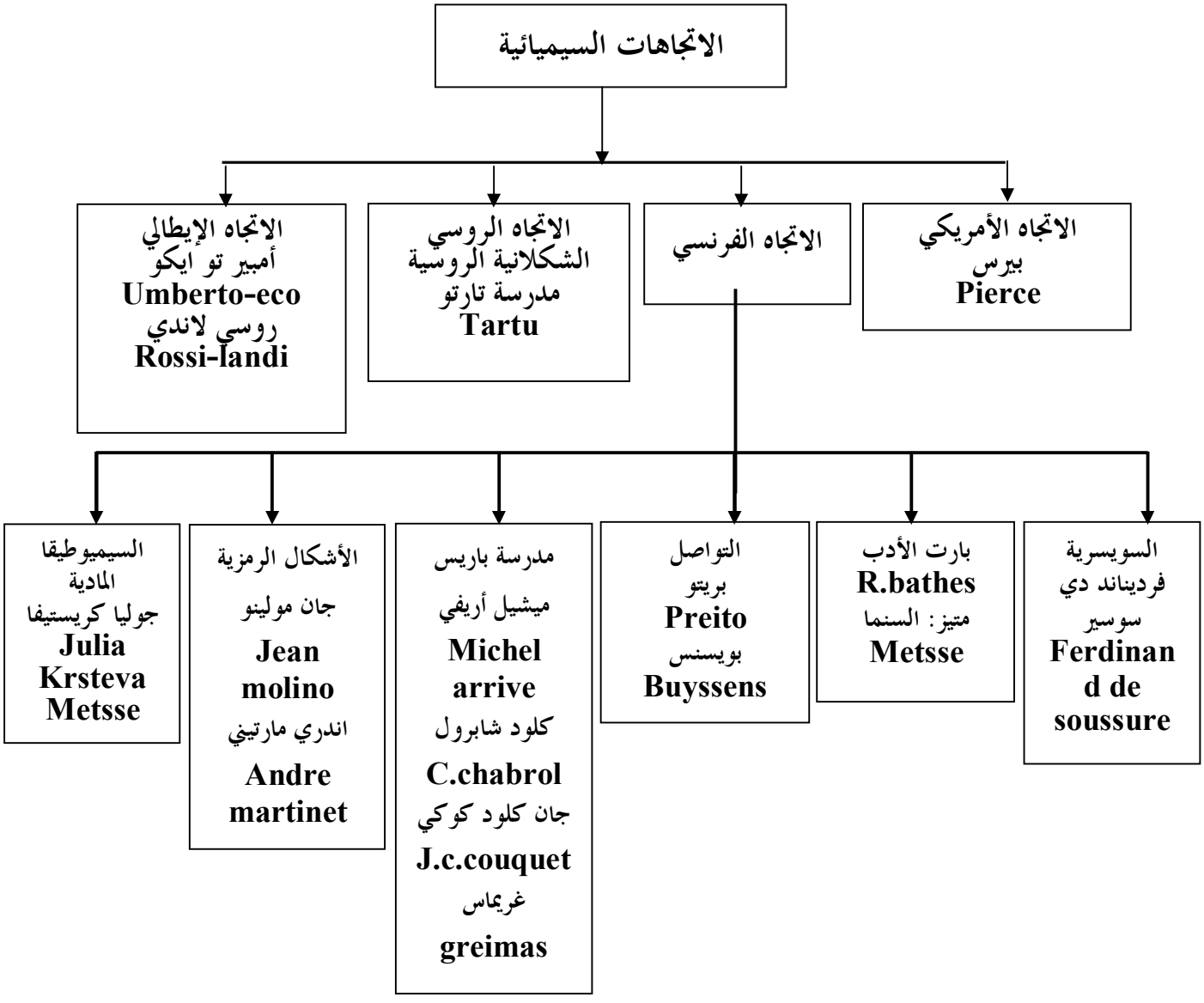

1)[مقال]السيميوطيقا و العنونة ،مجلة عالم الفكر،ص94 .

2)- ينظر: نفسه، ص95.

3)- ينظر:نفسه ،ص96 و للإطلاع أكثر ينظر:محمد السر غيني، محاضرات في السيميولوجيا،دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط 1 ، 1987 م .

5- السيميولوجيا والسيميائيات

إن اتفاق الباحثين حول شمولية علم العلامات كونه علم خاص بأنظمة التواصل كلها، سواء كانت النطقية (اللغوية) أو غير النطقية، فهذا لا يمنع اختلافهم في بعض القضايا الأخرى مثل اختلافهم في تحديد طبيعة المصطلح والموضوع الذي يعالجه ،كما يشمل الاختلاف بعض القضايا الفرعية الأخرى مثل الاختلاف في تحديد طبيعة العلامة و الدليل وغير ذلك من القضـــايا اللسانية. فعلى صعيد المصطلح نلاحظ ظهور مصطلحين اثنين في الفكر العربي.[1] يعرف المصطلح الأول باسم semiotique وقد ارتبط ظهوره بجهود العالم الفيلسوف الأمريكي بيرس بينما ارتبط المصطلح الثاني sémiologie بجهود العالم اللغوي السويسري دي سوسير.

فمن الصعوبة أن نعطي فرقا جوهريا بين المصطلحين وذلك راجع لـــكثرة الآراء واختلاف المرجعيات،عموما يمكن القول بأنهما يشتركان في كونهما يشيران إلى علم العلامات، إلا أنهما يختلفان في كون السيميولوجيا (sémialogie) ذات الأصل السويسري تهتم فقط بالعلامة اللغوية،والتي تعتبرها ذات طابع ثنائي"دال مدلول"تربطهما علاقة اعتباطية، أما Semiotigue ذات الأصل البيرسي فتحدد العلامة تحديدا ثلاثيا يتجلى في الممثل (Repésentament) والموضوع (L'objet) والمؤول (Interprétant) .[2]

وبما أن السيميولوجيا تعتمد بالأساس على العلامة السويسرية، فهي جزء من علم النفس العام أما السيميائيات فهي مرتبطة ارتباطا وثيقا بالمنطق حسب رأي بيرس، وفي سؤال طرحه روجي بول دوروا على غريماس: "تتكلمون عن سيميولوجيا مثلما تتكلمون عن السيميائية، ألا ينبغي أن نضع تمييزا بينهما ؟ وكانت إجابة غريماس كما يلي ... كان ينبغي أن نختار بين المصطلحين تمت تأثير رومان جاكبسون، وبالاتفاق مع ليفي شتراوس، بنفينيست وأنا شخصيا وقع الاختيار على السيميائية، غير أن لمصطلح السيميولوجيا جذورا عميقة في فرنسا..."[3].

إلا أنه هناك من الباحثين من خصص السيميولوجية للمواضيع اللسانية فيما تتبنى السيميائية

---

1)- ينظر :بلواهم محمد: [مقال]علم العلامات والنص الأدبي (سلطة القارئ) السيميائيات والنص الأدبي أعمال ملتقى معهد اللغة العربية وآدابها جامعة باجي مختار ،عنابة ماي 1995، ص38.

2)- ينظر:[مقال] السيميائية والسيميولوجيا،ص 204.

3)- ميشال أريفيه، السيميائية الأدبية تر: رشيد بن مالك: منشورات الاختلاف، الجزائر، 2002، ص 67

المواضيع غير اللسانية وبهذا الشكل، يبدو أن السيميولوجيا" ترتبط بالتحليل الدقيق للأدلة المتعلقة بالخطاب"[1]، في حين تدرس السيميائية "العناصر الاقتصادية أو التصنيفية التي تتجاوز هذا المقصود للأدلة في سبيل إدراجه ضمن تصنيف عام ذي طابع اجتماعي أو ثقافي"[2] بل إن الجمعية الدولية التي تأسست بفرنسا سنة 1974 والمهتمة بحقل العلامات اختارت -كقسيمة لها – مصطلح السيميوطيقا نظرا لانتشاره الواسع في الثقافات الأخرى خاصة الأنجلوساكسونية والروسية مع العلم أن مصطلح سيميولوجيا ظل راسخا بصورة قوية في فرنسا وغيرها من البلدان اللاتينية بفعل جهود كل من رولان بارت ومارتيني، ولابد أن ندرك أن العلماء الذين ينتمون إلى الثقافة الفرنسية لم يستعملوا تماما مصطلح سيميولوجيا في كتاباتهم.[3]

وعليه يمكن القول بأنه مهما تعددت الآراء واختلفت حول علاقة المصطلحين ببعضيهما البعض سواء كانت العلاقة علاقة اختلاف أو اتفاق فإن السيميولوجيا والسيموطيقا ساهما أيما مساهمة في الدراسات اللغوية وغير اللغوية المعاصرة سواء من الناحية النظرية أو التحليلية و التطبيقية ورغم هذا فالمشروع السيميائي لا يزال بكرا لم تتضح معالمه بعد،بل لا يزال في طور النمو وهذا ما سيعرفه على أيدي تلامذة كل من دي سوسير وبيرس و من يحذوا حذوهم ،فهؤلاء سيعملون على ثبت معالم وأسس هذا المشروع.

6- السيميائيات واللسانيات:

السؤال الذي يفرض نفسه للطرح هو هل هناك علاقة بين السيميائيات واللسانيات ؟ وأيهما فرع للآخر؟ فهل اللسانيات فرع السيميائيات أم ،أم هناك رأي آخر ؟

في حقيقة الأمر تعود جذور هذا التساؤل والإجابة المبكرة عليه إلى العالم اللغوي دي سوسير الذي كان له موقف جازم حيث صرح في غير لبس و بضرب من المصادرة التقريرية بأن السيميائيات علم أهم من اللسانيات وكان ذلك واضحا في قوله : "أن اللسانيات ليست سوى فرع من هذا العلم العام، والقوانين التي ستكتشفها السيميائيات ستكون قابلة لأن تطبق على اللسانيات، وبذلك جعل سوسير السيميائيات أُما واللسانيات فرعا منها"[4].

---

1)-السيميائية الأدبية، ص ص 69-70.

2)- نفسه .

3)- ينظر [مقال]، السيميائيات وتحليلها. لظاهرة الترادف في اللغة و التفسير ، عالم الفكر ،ص 192

4)- ينظر: عبد السلام مسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية ،الدار التونسية للنشر، أوت 1986، ص 67.

وكما جاء في التعريف فقد جعل سوسير السيميولوجيا أما واللسانيات فرعا منها وقد اعتمد في جزمه على أن السيميولوجيا أكثر شمولية في مجال دراستها لمختلف العلامات داخل الحقل الاجتماعي بعكس اللسانيات التي يحدد مجال دراستها على اللغة الطبيعية.

لكن فيما بعد تبين أن التقدم الذي أحرزته الدراسات السيميائية بعد سوسير بدا للكثير من الباحثين عكس ما صرح سوسير ومن هؤلاء رولان بارت يعكس الوضعية ويعتبر السيميولوجيا فرعا من اللسانيات يقول في مقدمة كتابه (عناصر السيميولوجيا) "يجب من الآن تقبل إمكانية قلب الاقتراح السويسري ليست اللسانيات جزءا و لا عن السيميولوجيا، لكن الجزء هو السيميولوجيا باعتباره فرعا من اللسانيات"[1] ، وذلك راجع عند بارت إلى كل نطاق سيميولوجي يمتزج حتما باللغة. [2](Tout system ex semiologique se mel de langage)

فلا يمكن الانفتاح على الأنظمة السيميولوجية الأخرى كالطعام واللباس ودراسة خصائصها إلا عبر الدليل اللساني حولها وبعين مدلولاتها ،ومن ثمة يبدو لنا في النهاية أن تخيل نظام من الصور أو الأشياء التي تستطيع مدلولاتها أن تتواجد خارج اللغة أمر يزداد صعوبة أكثر فأكثر.[3]

وتظهر علاقة السيميائيات باللسانيات في علاقة التفسير بتعبير بنفينيست فانطلاقا من قدرة نظام ما على تفسير نفسه وغيره وعجزه عن ذلك و يمكن تقسيم الأنظمة السيميائية إلى مستوين :

- مستوى الأنظمة التي تعجز عن تفسير نفسها بنفسها بل تحتاج إلى أخرى مثل الصورة والرمز والصوت.
- مستوى الأنظمة القادرة على تفسير نفسها وغيرها، وهو النظام اللغوي، وفي هذا الصدد يقول بنفينيست : "على الأقل هناك مسألة أكيدة وهي أن السيميولوجيا للصوت أو اللون أو الصورة لا يمكن أن تصف الأصوات، الألوان أو الصور، بل لا بد لها أن تستعير ترجمان اللغة كواسطة ضرورة، بالتالي فإن وجودها متعذر إلا بواسطة سيميولوجيا اللغة".[4]

---

1)- رولان بارت،مبادئ علم الأدلة ،تر:محمد البكري،الدار البيضاء ،عيون المقالات ،ط1، 1986م، ص ص 29-30

2-jeane dubois: dictionnaire de linguistique,libraire larousse,paris,1ere,edi,paris,1973, p/ 435

3)-ينظر: مبادئ في علم الأدلة، ص28

4)-نفسه .

ثانيا– عصر الجاحظ وحياته :

لقد آثرت قبل الحديث عن ترجمة حياة أبي عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ رأيت أنه من الضروري أن أتكلم عن القرنين الثاني والثالث، باعتبار فكر الجاحظ كان نتاجا لهذه البيئة العباسية، وبالتالي نضعه في إطار عصره فما هي أهم مميزات وخصائص هذه البيئة التي نمت فيها هذه الشخصية؟

1– عصره .

أ–الحياة السياسية:

عاش الجاحظ في العصر العبـــاسي الأول، و هو عصر استوعب تراث العصر القديـــم، فقد ازدادت جذور التواصل في هذا العصر بين هذا التراث وبين الثقافة الإسلامية عن طريق التزاوج بين العرب وغيرهم ,والسفر والترجمة وكان لنصيب الفرس الحظ الأوفر من هذا التواصل من أي شعب آخر ومن شعوب الأمة الإسلامية ولقد ازداد نفوذ الفرس في هذا العصر وقوي تأثيرهم في مجالات مختلفة من الحياة السياسية والعلمية والأدبية.[1]

وبذلك عمت الروح الفارسية في الحياة العباسية، وكـــان تقدم الفرس على العرب في مختلف شؤون الحكم سببا هائلا بين العرب والموالي، وسرعان ما ظهرت نزعة الشعوبية[2] بالإضافة إلى توسع التجارة في العهد الأول من الدولة العباسية لما نشطت الزراعة ومختلف الصناعات، فتوفرت الأموال وكثرت الغنائم من جراء الحروب والغزوات فشاع اللهو في البلاد وكثر الغناء وكذا المغنيات واتجه كبار الدولة من الخليفة إلى الوزراء إلى الأمراء نحو العلوم يطلبونها من العلماء والشعراء ،ويحسون إليهم وينادونهم، كما شجعوا الأدباء والمترجمين بالمال والتأييد وعليه كثر التوفير وراجت تجارة الرقيق والغلمان.

وهكذا شاع الترف في جميع مظاهر الحياة، كما نشأت في العصر العباسي الأول ثقافات ثلاثة: العربية، اليونانية الشرقية والتي نجدها عند الفرس والهنود، وتأثر العرب بهذه الثقافات الثلاث مما زاد من امتزاج العرب بالفرس و مساندة الفرس للعباسيين في قيام دولتهم .

ب– الحياة الاجتماعية:

يرى الكثير من الدارسين في المقارنة بين الدولة الأموية والعباسية بأن هناك فواصل بينهما

---

1)– ينظر: عبد الحكيم حسان، الأدب المقارن والتراث الإسلامي، مكتبة الأدب، القاهرة، 1998، ص23.

2)– ينظر: شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف بمصر، ط6، 1971، ص121.

ولكن نحن نلاحظ أن هذا الرأي يجانب الصواب، وذلك من الناحية الاجتماعية والعقلية، وسنبرز ذلك في أمرين اثنين:

– إن تقاليد الدين الإسلامي ظلت منتشرة ومؤثرة في البلاد المفتوحة ونفس الشيء كان حاصلا مع اللغة العربية فلم يكن قيام الدولة العباسية حاجزا لهما.

– لو أننا فرضنا أن الدولة الأموية استمرت في الحكم إلى الزمن الذي حكمته الدولة العباسية لظهر خلالها من الحركات العلمية والأدبية والنظم الاجتماعية كانت في آخر الدولة الأموية أرقى منها في أولها. كما تجدر الإشارة إلى التوسع الحضاري والتطور في النظم الاجتماعية كان حظ الدولتين معا

إلا أن هناك عوامل ميزت الدولة العباسية كغلبة النفوذ الفارسي وانتقال العاصمة من الشام إلى العراقّ وهذا كان له أثر كبير في نمو الحركة العلمية والاجتماعية وهذه الأخيرة، لونَتِ العلوم والآداب بلون خاص وجعلت لها صفات خاصة، كغلبة النفوذ الفارسي وحرية الفكر كما تميز هذا العصر، بِحركة التأليف والترجمة حيث حول ما في اللسان العربي إلى التسجيل في الكتب وتحويل ما باللسان الأجنبي إلى لغة العرب (الترجمة) إلا أنه يمكننا إجمال أهم خصائص هذه الفترة من الناحية الاجتماعية في النقاط التالية :

– تنوع الظاهرة الاجتماعية وتأثيرها الكبير على الحياة الثقافية والفنية ومن أبرز الظواهر الاجتماعية:

–التوليد وظاهرة المولدين، نتيجة الامتزاج والتزاوج بين الأجناس فامتاز هذا العصر بكثرة هذا الجيل من المولدين فأصبح من أبرز العناصر المكونة للدولة بالإضافة إلى ولادة فكر جديد.

–ظاهرة الصراع وإن لم يكن هذا الصراع مُحتما وهو ما فرضته كثرة الأجناس إذ وقع تصادم بين مميزات كل جنس من قيم وعادات...

–ظاهرة الشعوبية [1]، التي تعتبر من أبرز الظواهر الاجتماعية لذلك العصر.

– اجتماع وجوه مختلفة من الحياة الاجتماعية كالغنى والفقر، الكرم، البخل،التقوى، الاستهتار[2].

– اتخاذ العباسيين الفرس وحضارتهم مثلا أعلى لهم ونموذجا يحتدون به كما أنهم تخاطبوا بالفارسية لمدى إعجابهم بها.[1]

---

1)– سنتحدث عن مفهوم هذا المصطلح في الصفحات القادمة من هذا الفصل.

2)– ينظر: عمر فروخ، المنهاج في الأدب العربي وتاريخه، منشورات المكتبة المصرية صيدا، بيروت لبنان ، ط1 ،1959 ، ص 162.

ج-الحياة الفكرية والثقافية:

إن الحياة الثقافية والفكرية ما هي إلا انعكاس لتفاعل ظروف وعـــوامل سياسية ودينيـــة واجتماعية أعطت لنا تلك الحياة النابضة بالفكر والثقافة والعلم والأدب.فانتشرت تيـــارات فكريـــة كثيرة لم تألفها الحضارة الإسلامية من قبل، وبذلك أصبحت حواضر هذه الدولة الفنيـــة المترامـــية الأطراف بمثابة بوتقات تلتقي فيها مختلف هذه العناصر ولكل منها طابع خاص.[2]

وأيام الحكم العباسي الذي يعد انقلابا اجتماعيا وسياسيا وثقافيا برز الدور الهام لعملية المثاقفة الحضارية مع الشعوب الفارسية والهندية واليونانية غير أن صدمة التلاحم المفاجئ كانت سببا في أخذ هذه لاستيعاب ثقافات هذه الشعوب، تفهمها وهضمها وتمثلها ومن ثم محاولة المواءمة بينها وبين مـــا يناسب الفكر الإسلامي.[3]

حيث بدا التأثيـــر الفارسي العربي واضحا في الأدب، وهذا بفضل الترجمة وعناصر تراثيـــة أخرى ساهمت بشكل أو بآخر في تفعيل وإرساء دعائمها في التراث العربي فقد بات من الطبيعي أن تشهد الحياة العباسية تطورا ونضجا عقليا، نتيجة التفاعل الحاصـــل بـــين الحضـــارات إذ ظهـــرت المحاورات والمناظرات، والجدل بين أصحاب الملل والنحل والأهواء إذ ترجم العرب كتبا في الفلســـفة والمنطق وفي علوم شتى، وقد كان تأثير ما ترجم الأثر العميق في توسيع آفاق العقلية العربية.[4]

إن البيئة العباسية لم تكن متعددة الجوانب السالفة الذكر فقط بل كانت تجمع متـــناقضات أخرى إنها كانت تحفل بطبقات اجتماعية مختلفة وبحركات فكرية متباينة ناهيك عن اختلاف البشر سواء كان ذلك على مستوى الاستعدادات أو الميولات أو الأذواق والمكاسب والمصالح أو الأهـــواء فهناك أفراد لم يرضوا لبعض هذه الوجوه المتضاربة فانتقدوها وحملوا على أهلها حقا وباطلا وهذا ما حدث في العصر العباسي.

---

[1])- ينظر: زاهية قدوره، الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول ، دار الكتاب اللبناني بيروت جوان، ط1، 1992، ص194.

[2])- ينظر: كامل محمد عويضة، الجاحظ الأديب الفيلسوف، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط1 1993، ص 09.

[3])- ينظر : نور الدين السد، الشعرية العربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص170.

[4])- نفسه ، ص171.

2 – حيـــاته

أ– اسمه ومولده:

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي الشهير بالجاحظ [1] قيل أنه من كنانة وقيل أنه كناني بالولاء فقد لقب بالجاحظ لجحوظ عينه ونتوئهما مما جعله دميما،كما أن تاريخ ولادته وتاريخ وفاته لا يخلوان من الاضطراب على أن المتفق عليه أنه ولد عام(159 هـــ 775م)، ومات عام(255 هـــ 868م) أي أنه عاش 96 سنة، ولقد شكى هو نفسه كبر السن في قوله عندما ذكر مرضه "وأشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها"

ولا مجال لنا أن نذهب بعيدا مع خلافات الرواة حول مولد الجاحظ فقد نقل ياقوت الحموي في معجمه أن أبا عثمان نفسه قال: "أنا أسن من أبي نواس بسنة، ولدت في أول سنة مائة وخمسين وولد هو في آخرها" وجعل بعض المؤرخين ولادة الجاحظ: (155هـــ) عند أبي الجوزي في مرآة الزمان و(160هـــ) شفيق جبري، أما الزركلي سنة(163 هـــ) في الأعلام.

وهكذا أصبحنا أمام روايات مختلفة لمولده وليس بين أيدينا ما يمكننا القطع والجزم لأي منها لكن يمكننا ضم رأينا إلى رأي الدكتور طه الحاجري حيث قال: " نستطيع أن نطمئن إلى أن مولد الجاحظ كان في العقد السادس من القرن الثاني"[2].

ب– نسبـــه:

كما لحق الاضطراب مولده ومماته، لحق نسبه فجعله بعضهم كنانيا صليبيا، وجعله بعضهم الآخر كنانيا بالولاء، [3]وقد يكون النسب الثاني الأقرب إلى الصحة من الأول عند الكثيرين، فأشار الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، ومن بعده بن عساكر في تاريخ دمشق إلى أن الجاحظ ينتسب إلى قبيلة مضرية من كنانة ضاربة في جهات مكة ثم يعلنان دون أي تحفظ أنه إما كناني قح من صلبهم أو مولى لهذه القبيلة وهذا ما ذكره الدكتور شارل بيلا، مواصلا مناقشة أصل الجاحظ إلى أن يصل إلى أنه ليس هناك من يجزم بأن الجاحظ من أصل عربي صريح، ويستثنى السندوبي الذي أبى التصديق ويجمع البراهين على نسب الجاحظ العربي.[4]

---

1)– خير الدين الزر كلي، الأعلام: دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط9، ج5، ص74.

2)– طه الحاجري، الجاحظ حياته وآثاره، دار المعارف بمصر، 1969م، ص89.

3)– ينظر: جورج غريب، الجاحظ دراسة عامة ، دار الثقافة، بيروت لبنان، 1980، ص 08.

4)– ينظر: د/شارل بيلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، تر:إبراهيم الكيلاني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1985،1، ص96.

فمثلا يرى أنه لو كان في دم الجاحظ شيء قليل أو كثير من دم الأجناس غير العربية لوجدناه أول من يمثل الشعوبية، ولكن نجد أن الجاحظ في كتبه وفي كل ما روي عنه شديد العصبية للعرب ورغم دليل السندوبي هذا إلا أن تشارل بيلا حاول دحضه وزعم أنه استطاع ذلك بقوله أن الجاحظ نصب نفسه للدفاع عن العرب لأن انتسابه إليهم كان من القدم بما يجيز له أن يعتبر نفسه عربيا حقيقيا.[1]

ج- نشـــأته

ولد الجاحظ ونشأ بالبصرة، حيث قضى أكثر عمره [2]وهي آنذاك مهد العلم ومنتدى الأدب وكان تعلقه بها شديدا كيف لا وقد قضى أكثر حياته في ظلالها، وتنقل منذ طفولته بين مرابعها ومسارحها، وقص في كتبه قصص أعلامها، وأدبائها وبلغائها رواتها وبخلائها وأحاديث تجارها وعمالها وكهولها.[3]

فالبصرة هي تلك المدينة الجميلة الواسعة الأرجاء التـــي تزخر بأهلها الذين يتضاعفون بها بالإضافة إلى الحياة المعقدة التي تتميز بها بين مختلف التراعات وشتى التروات، فهي تضم بين جوانبها شتى الأجناس البشرية تقريبا لكل جنس منها خلقه ومزاجه وطابعه الفكري وتصرفاته وسلوكاته.[4]

وفي أجواء هذه المدينة نشأ الجاحظ مكافحا في بداية حياته يرتزق من بيع الخبز والسمك قرب سوق المربد فحالة الفقر هاته لم تثن عزمه عن طلب العلم، فكان دائم التردد على الكتاب كثير المعاشرة والمخالطة لعلماء المسجدين آنذاك، وكان عصاميا متطلعا لكل ما يسمعه مقبلا على الدراسة والتعليم في كل شيء فكان للبيئة الفكرية التي شهدها عصره الدور الكبير في تنميته فعصره شهد أزهر وأجمل الأيام العربية ونضجت فيه العلوم العربية والإسلامية...[5]في مثل هذه الظروف اندمج الجاحظ واستفاد منها فاتخذ كل شيء يقـــع تحت حسه موضعا للدراسة فالحيوانات والنباتات والصناعة ... ثم تنقل في أوساط اجتماعية مختلفة نمت معارفه وزادت حاله ومعارفه، فقد خالط واقترب من الباعة والمجانين وجالس الشعراء والأدباء ونادم الملوك والوزراء وغيرهم.[6]

---

1)- ينظر: الجاحظ في البصرة و بغداد وسامراء، ص ص 12-28.

2)- محمد التو نجي، المعجم المفصل في الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 1999، ج1، ص 200.

3)- عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، دار الكتاب اللبناني، بيروت،ص ص51-52.

4)- ينظر :نفسه، ص96.

5)- ينظر: الجاحظ الأديب الفيلسوف ، ص06.

6)- ينظر:نفسه، ص08.

وكخلاصة لنشأة الجاحظ وحياته نذكر التقسيم الذي وضعه الدكتورين طه الحاجري وعبد المنعم خفاجي، فالأول جعل حياته في عهدين متميزين عهد بصري وعهد بغدادي.[1] فالعهد البصري هو العهد الذي استقبل فيه الجاحظ الحياة والعوامل والأسباب المختلفة التي هيأت شخصيته، فهو عهد التحصيل عن العهد البغدادي، العهد الذي أخذ فيه مكانة في العلم والأدب وأخذت ملابسات الحياة فيه تستدر إنتاجه وتبرز مظاهر شخصيته فهو عهد الإنتاج، والثاني يقسم حياة الجاحظ بطريقته الخاصة حيث جعلها في أربعة مراحل كالتالي:

1-مرحلة الدراسة 2- مرحلة الأستاذية

3-مرحلة المجد و الزعامة الفكرية 4- مرحلة مرضه ووفاته

د- مرضه ووفاته :

قيل أن الجاحظ أصيب في أخريات عمره بالفالج والنقرس[2] قاس منه طويلا، إلى أن قضى عليه وقيل أيضا أنه في أحد الأيام انهالت الكتب أثناء مطالعته فقضت عليه، [3]ويذكر كتب ياقوت الحموي أن المبرد قال: دخلت على الجاحظ في آخر أيامه فقلت له كيف أنت ؟ فقال يكون من نصفه مفلوج لوخز بالمناشر ما شعر به ونصفه الآخر منقوس لو طار الذباب بقربه لآ لمه وأشد من ذلك ستة وتسعون سنة أنا فيها"[4].

هـ- آثـــاره

لقد كان الجاحظ موسوعة معرفية متنقلة، و تعتبر كتبه دائرة معارف تنهل منها الأجـــيال السابقة واللاحقة، كتب في شتى المعارف والعلوم كتب في علم الكلام والأدب والسياسة والتاريخ والأخلاق والنبات والحيوان و الصناعة والنساء والسلطان والجند والقضاة والولاة والمعلمين واللصوص والإمامة وغيرها من الموضوعات.

---

1)- ينظر: الجاحظ حياته وآثاره ،ص.78

2)- الفالج: فلج كل شيء: نصفه والفالج يأخذ الإنسان فيذهب بشقه ،وقد فلج فالجا ،فهو مفلوج ،وفي حديث أبي هريرة:الفالج داء الأنبياء ،داء معروف يرخي بعض البدن - النقرس: داء معروف يأخذ في الرجل،وفي التهذيب في المفاصل.(للاستزادة ينظر:لسان العرب ،للإمام أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور ،المجلد الثاني والسادس ،دار صادر –بيروت،1994،ص ص346-240)

3)- ينظر: الفن ومذاهبه في النثر العربي ،ص 160

4)- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، مجلد 04، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1991، ص49

تعتبر كتب الجاحظ موسوعة معارف بحق،فحوت علوم عصره و كانت صورة شاملة تترجم أحوال البيئة في مختلف نزاعاتها وتشعباتها وعاداتها وتقاليدها وأعراضها العباسية ،وبذلك ترك آثارا فكرية وأدبية ودينية على جانب كبير من الأهمية في تاريخ الفكر العربي، وقد ضاعت هذه الكتب و لم يبق إلا القليل منها، إذ كان أبو عثمان أكثر الناس حبا للقراءة والتأليف ولا يعلم أحد من العلماء أكثر تأليفا منه كما يقول المسعودي، وقد اشتهر الجاحظ وثلاثة من معاصريه بكثرة التأليف وهم:

1-هشام الكلبي (ت 206 هـ) وله نحو 139 مؤلفا.

2- أبو عبيدة (110هـ-209هـ) وله 100 مؤلف

3- المدائي (135هـ-225هـ) وله نحو المائتين.[1]

وكما يقال : "أربعة لم يلحقوا و لم يسبقوا أبو حنيفة في الفقه والخليل في أدبه والجاحظ في تأليفه وأبو تمام في شعره."[2]

وكان ابن العميد يقول: "إن الناس عيال عليه في البلاغة والفصاحة واللسان والعارضة"

وكان يقول أيضا: "إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولا و الأدب ثانيا " [3]

وقد فاقت مؤلفاته الأربعمائة كتاب في شتى العلوم والفنون ومناحي الحياة المختلفة وسوف نشير إلى بعضها باختصار وهذا نظرا لكثرتها:

-كتب القرآن الكريم

كتاب الاحتجاج لنظم القرآن –آي القرآن- مسائل القرآن.

-كتب في الأحكام

رسائل في الميراث – في الشارب والمشروب – كتاب ذم الزنا

-كتب في الاعتزال

كتاب فضيلة المعتزلة، أحدوثة العامل، كتب في الفرق والآراء، الرد على أصحاب الإلهام والشعوبية، الرد على المشبهة.

---

1)- أبو عثمان الجاحظ، ص 284.6

2)- نفسه، ص 185.

3)-الفن ومذاهبه في النثر العربي،ص138

-كتب في الأخلاق والمجتمع

كتاب أخلاق الشطار – تهذيب الأخلاق – كتاب الإخوان

-كتب في الاقتصاد:

كتابات حصين الأموال – غش الصناعات – النواميس في حيل أهل الغش والتدليس.

-كتب في النبات

كتاب الزرع والنحل

-كتب في الحيوان

كتاب الحيوان: يعد من أهم كتب الجاحظ ومن أشهرها وقد أهداه إلى ابن الزيات.

-كتب في الأدب

كتاب الأمل والمأمول – البخلاء، الأمثال.

-كتب في البلاغة والإعجاز

كتاب البيان والتبيين وهو من أهم كتب الجاحظ ألفه في أخريات حياته.

كتاب التربيع والتدوير من أطرف رسائل الجاحظ، رسائل الجاحظ، سحر البيان.

-كتب في الجغرافيا

كتاب الأمصار وعجائب البلدان.

-كتب قصصية

كتاب نوادر الحسن ، الملح و الطرف .

-كتب في السياسة

كتاب الرد على العثمانية ، السلطان وأخلاق أهله –الرسالة اليتيمة التاج وأخلاق الملوك.

-كتب في الإنسان والأجناس

كتاب الصرحاء والهجناء – العرب والعجم

-كتب في الجدل

كتاب ذم العلوم ومدحها – الجدل والهزل أهداه إلى أبي الزيات – النبوات – المحاسن والأضداد.

-كتب في المعارف العامة

كتاب الأخبار- كتاب المعلمين – طبقات المغنيين – فضل العلم -كتاب الطفيليين.

-كتب في التاريخ

كتاب أديان العرب – الأصنام – جمهرة الملوك، القضاء والولاة. [1]

ومن خلال هذه الجولة الموجزة التي عشناها مع آثار الجاحظ نقول إن أدب الجاحظ بقي و سيبقى معينا ثراً لمعرفة معارف مختلفة صورت لنا خفايا مجتمع ازدهر بشتى الأنماط والفئات من الناس، عايشه الجاحظ بكل قدراته العقلية والفكرية مقدما فترة قاربت قرنا من الزمن من نحو منتصف القرن الثاني إلى منتصف القرن الثالث) فترة عاشها أبو عثمان عمرو بن بحر الملقب بالجاحظ. [2]

ثالثا– الكتاب (البيان والتبيين)

1– محـــتواه

إن ما عرض له الجاحظ من موضوعات في كتابه البيان والتبيين هو استنباط أصول البيان كما تحدث فيها السابقون، وهو من الموضوعات الرئيسية التي سيطرت على الكتاب الذي أراه أول سفر في تاريخ البلاغة العربية من عمل أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتكلم وموجه الفكر والأدب العربيين لعدة قرون منذ نهاية القرن الثاني الهجري.

الكتاب من أواخر مؤلفات الجاحظ الكثيرة، وقد قصد به التعريف بالبيان والبلاغة، والخطابة فذكر محاسنها ومساوئها وشرح فنونها وألوانها.فبدأه بالاستفادة من العي ثم تطرق إلى خصاصة اللسان، وعاب التشدق والتقصير وانتقل بعد ذلك إلى الكشف عن الإختلاف في لغة العرب في استعمال الألفاظ، حتى إذا اقترب من الخطابة تحدث عن عيوب اللسان مشيرا في ذلك إلى أشهر الخطب والخطباء سواء من اشتهر منهم بسلامة النطق أو بعيب فيه ثم يشير في حديث آخر إلى البلاغة، فيبين علاقة البلاغة بالشعر واللسان وفي الصمت وفي الكلام المسجّع، مستشهدا بأدلة من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والشعر العربي القديم ثم انتقل بعد ذلك للرد على الشعوبية مدافعا عن فصاحة العرب، كما تطرق إلى الكلام عن الزهد والنساك وعن كلامهم ومواعظهم كما أن الكتاب لم يخل من نوادر الجاحظ التي شملت بعض الحمقى والمجانين.

فقد اعتمد الجاحظ في كتابه على أسلوب تحرر فيه من كل غموض ومن التنميق اللفظي، مع

---

1)- ينظر: أبو عثمان الجاحظ ، ص285 وما بعدها ،و للتوسع أكثر ينظر أيضا:د/علي شلق، الجاحظ،دار مكتبة الهلال ،ط1، 2006،ص44وما بعدها.

2)- ينظر: وديعة طه نجم، مقال الجاحظ والكتابة العامة، مجلة العربي، العدد308 ،1984،ص47.

المحافظة على جزالته ثم مزج هذا الأسلوب ما تعلم وبما تعلم وبما سمع من كلام عن أحوال الناس.[1] لهذا نجد أن الجاحظ دعا الكتاب إلى العناية بتنميق اللفظ بحيث يحولون بين القارئ و تعميق الفكرة والتزامهم بالجد المفضل أحيانا إلى الغموض في عرض الفكرة وتجميعهم للشواهد دون التركيز على كشف النوازع الإنسانية.

الكتاب كما قلت سلفا آخر ما ألف الرجل في حياته فهو يعتبر عصارة تجارب كونت ثقافة الجاحظ سواء كانت هذه التجارب فكرية وأدبية أو اجتماعية أو دينية أو سياسية وهذا كان بتأثر العناصر المختلفة للثقافة البصرية آنذاك وحتى التأثيرات الوافدة على البصرة كان لها دور فعال في التكوين الثقافي والعلمي مما جعل منه أديبا مبدعا وناقدا بارعا.

2- لغة وأسلوب الجاحظ فيه

- لغتـــه

لغة أبي عثمان في البيان و التبيين اللـــغة التي يقتضيها العقل ويطـــلبها الأداء عن الحقيقة فهو يرمي إلى الإفهام وبالتالي استعمال الألفاظ ،التي تفصح عن المعاني عن طريق الحقيقة إلا أنه أحيانا يميل فيها إلى الرمزية بل إلى ضرب من التورية حيث يتجاذب اللفظ معنيان معنى ظاهر حقيقي غير مقصود في النص يمكننا إيراده على ذلك الوجه ومعنى خفي يحيل على لغة خاصة يبدو أنها كانت متداولة بين الأوساط الكلامية.[2] فالجاحظ كان ينظر إلى شيئين عند اختيار ألفاظه .

- الدقة والموسيقى ومن ثم شاعت العذوبة في كلامه إلا أن تلك السهولة،وتلك الدقة لا تخلو من غموض ينجم عن التباس الضمائر فلا يعرف إلى من ترجع لتعاقبها، ويعمد الجاحظ أحيانا إلى ألفاظ أعجمية وعامية مراعاة لمقتضى الحال [3]،وعلى حد تعبير أحمد حساني يعني باللفظ المختار العلامة اللسانية العرفية المتواضع عليها في المجتمع اللغوي.[4]و مهما يكن من أمر فالجاحظ مصور بارع يصور بجملة حسنة المعنى جميلة التأليف.

---

1)- ينظر: عز الدين إسماعيل: المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ص 139.

2)-ينظر: محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ديوان المطبوعات الجامعية، طبعة 1999،ص63.

3)- حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي، دار الجيل بيروت، لبنان، ص58.

4)-ينظر: مباحث في اللسانيات ، ص140.

– العناية الخاصة باختيار الكلمة التي تستوفي التعبير عن المعنى المقصود ولا يستكشف عن استعمال التعابير الواقعية واللهجات العامية فالجاحظ لحرصه الشديد على الملاءمة بين اللفظ والمعنى، فهذا الحرص حمله على أن ينقل الكلام كما جاء على لسان أصحابه دون تغيير أو تبديل حتى ولو كان سخيفا وقد بلغ هذا المذهب بأن سخيف الألفاظ يشاكل سخيف المعاني،وأنه يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع، ويكون أنفع من الكلام الجازل الفخم،[1]فلغته لغة تذكر الحقائق بأوضاعها دون زيادة أو نقصان لا بسلسلة تصويرات أو تشبيهات أو مما إلى ذلك وهو في كل ذلك رجل الواقع والعقل لا يحيد عنه في أي حال من الأحوال.[2]

فأبو عثمان لم يكن ممن لا يراعي أهواء ومستويات وأحوال القراء بل كان يراعي ذلك بكل عناية، حتى تكون لغته لغة هادفة ولها معنى وهذا لا يعني أنه بأي حال من الأحوال ممن يحبون التصريح لأنه في بعض الأحيان يعدل إلى لغة فيها شيء من الكناية.

– أسلـــوبه :

على حد تعبير محمد الصغير بناني الذي يرى أن غموض أدب الجاحظ وبلاغته يرجع في نظره إلى سوء التفاهم بينه وبين ناقديه، وسوء التفاهم هذا راجع بالدرجة الأولى إلى الأسلوب الذي اختاره الجاحظ للتعبير به عن أفكاره، وهو أسلوب مبني على إيهام أو ازدواج معنوي على سبيل التورية[3]، لكن رغم هذا إلا أن الجاحظ ارتقى بالكتابة بعد عبد الحميد الكاتب وابن المقفع فقد جمع محاسنهما، وزاد عليها خفة الروح وجمال العرض، كما أننا نلمس في مصنفه أسلوب التنوع بين الأسلوب العلمي المجرد، والاسترسال في الاستطراد والاستشهاد والجد، و يعمد إلى الهزل في مواطن الجد. [4]ويعدل عن أساليب المجاز ما استطاع ، وإن عمد إلى شيء من التشبيه والاستعارة، فما ذلك للزخرفة والصنعة اللفظية، ولكنه لوضوح الإبانة بطريقة واقعية محسوسة.

فالجاحظ كان يزاوج بين معنيين، حيث لا تتجلى هذه المزاوجة في الصياغة اللفظية فحسب بل حتى في تنشئة المعاني وتحريرها أيضا، فدليل الجاحظ دليل ذو وجهين وجه جعله للعامة ووجه جعل للخاصة من الناس فهذا يدل على الاقتدار وهذه سمة امتازت بها المدرسة الكلامية ذاتها.[5]

---

1)– ينظر :علي بوملحم ، المناحي الفلسفية عند الجاحظ ، دار الطليعة للطباعة و النشر بيروت ، ص312.

2)– ينظر:نفسه ص 583.

3)–النظريات اللسانية والبلاغية الأدبية عند الجاحظ، ص62.

4)– الجامع في تاريخ الأدب العربي ، ص ص 582،583.

5)– ينظر: النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ، ص62.

فأسلوب الجاحظ كان يتميز بالبعد عن التصنع والغموض، فقد كان يرمي الإفهام والوضوح والإبانة، و ينحو نحو استعمال الألفاظ التي تجلو الحقيقة وتقربها إلى الأذهان، يقول: "أحسن الكلام قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه، وكأن الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه،و تقوى قائله. فإذا كان المعنى شريفا، واللفظ بليغا، وكان صاحبه صحيح الطبع بعيدا عن الاستكراه، مترَها عن الاختلال مصُونا عن التكلف صنع في القلوب صنيع الغيث في التربية الكريمة" [1]فهو دائما يعنى بصياغته بادئا بموادها من الألفاظ فهي تارة ألفاظ جزلة رصينة وتارة ألفاظ عذبة، ولكل لفظة موضعها من الكلام، فقد كان يتجنب التعقيد والإغراب في اللفظ الفصيح المفهوم ولكنه مع ذلك لم ينحدر إلى اللفظ المبتذل وهكذا جاءت ألفاظه وسطا بين السوقي الساقط والغريب الوحشي [2]وقد عبر عن هذا الأسلوب بقوله:"وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا وساقطا سوقيا ،فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي..."[3]

أما جملته فهي في الأغلب الأعم وجيزة أنيقة وهي قوية الحبك حتى عندما تكون ثقيلة التراكيب رغم أنه يغلب عليها القصر والرشاقة والوضوح والتفصيل إلا أنها تطول أحيانا وتتسع أحيانا أخرى لما تتداخل الجمل المشاركة فيها منصبة على الغرض الواحد دون أن يعتريها تقطع أو غموض وتصويره حيٌ يبعث الموصوف نابضا في أدنى تفاصيله، فهو يتتبعه بشغف ويراقبه بدقة لا يتركه إلا بعد أن يعمل فيه كل طاقاته فيخرجه على أكمل وجه، ويبرزه على الشكل الذي أراده.[4]

وفي الأخير لابد أن نذكر بأهم سمة تميز بها الجاحظ في أسلوبه في الكتابة حتى غدا منهجا أصيلا في التفكير والتعبير، فهذه السمة في أسلوبه التأليفي هي ظاهرة الاستطراد والمبثوثة في العديد من مؤلفاته فقد كان واعيا تمام الوعي بنوع طريقته في الكتابة مؤمنا بجدواها فمثلا نجده في البيان والتبيين إذا تكلم عن البيان بعد حديث طول عن العجز والعي، وحال قريش في بلاغة المنطق مهد له بقوله:"كان في الحق أن يكون هذا الباب في أول هذا الكتاب، ولكن أخرناه لبعض التدبير".[5]وقد أدى ذلك إلى تكرار النصوص والحديث عن الموضوع الواحد في أكثر من موضع وقد يكون التكرار

---

1)- الجاحظ، البيان والتبيين: تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج1، ص83.

2)-ينظر: المناحي الفلسفية عند الجاحظ، ص312.

3)- البيان والتبيين ، ج1 ، ص 144.

4)- ينظر : الجاحظ دراسة عامة ،ص 114.

5)- البيان والتبيين، ج1،ص 86.

في الباب لنفسه وقد يكون في الجزء نفسه أو في جزء آخر منه كالحديث عن البلغاء وأخبارهم والخطباء ومواقعهم والحمقى ونوادرهم ومثال ذلك ما ذكره في باب" أن يقول كل إنسان على قدر خلقه وطبعه"[1]عن الزهري عندما سئل ما الزهد في الدنيا قال: ألا يغلب الحرام صبرك ولا الحلال شكرك" وقد كرر هذا القول عينه في الباب نفسه دون أن تكون هناك ضرورة لهذا التكرار، وإذ كان قول الزهري ينصب على تعريف الزهد يتوقع أن يستشهد بهذا القول في باب الزهد الجزء الثالث وهذا ما حدث حقا، وقد كان من الأفضل أن يحتفظ الجاحظ بهذا ليضعه في موضعه في باب الزهد، لكن الاستطراد قد أوقعه في هذا التكرار.[2]

3- تاريخ ودوافع البيان و التبيين

- تاريخ تأليف الكتاب

يقول عبد السلام محمد هارون محقق الكتـــاب أن الجاحظ ألـــفه في أخريـــات حياته حين علت به السن وقعد به المرض، وذكر أنه ألفه بعد كتاب الحيوان، حيث عثر على نص قاطع في البيان والتبيين يدل على ذلك وهو قوله: "كانت العادة في كتاب الحيوان أن أجعل في كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقتطفات الأعراب، ونوادر الأشعار لما ذكرت عجبك بذلك فأحببت أن يكون حظ هذا الكتاب في ذلك أوفر إن شاء الله".

ويروي ياقوت على لسان الجاحظ قوله :" أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى ابن أبي داوود فأعطاني خمسة آلاف دينار..."[3]، وبعد قتل ابن الزيات جيء بالجاحظ مقيدا إلى مجلس ابن أبي داود فجرت بينه وبين القاضي محاورة انتصر فيها الجاحظ وكان من عاقبتها أن رضي عنه ابن أبي داود وأجازه وقـــربه إلى نفسه وهذا الخبر يبين أن كتاب البيان والتبيين لم يظهر إلا بعد سنة (233هـــ) وهي السنة التي قتل فيها ابن الزيات.[4]

---

1)- البيان والتبيين ،ج1 ، ص 175.

2)- ينظر: المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي، ص144.

3)- ينظر :ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ،دار الفكر للطباعة والنشر،ط1980،3،مج8،ج16،ص116

4)- مقدمة البيان والتبيين،ج1 ، ص16.

– دوافـــع التأليف:

جاء البيان و التبيين نتيجة أسباب ودوافع أسهمت في ظهوره وانتشاره حتى أصبح نبراسا ونورا في العالم أضاء الطريق إلى ما جاء بعده وكان منبعا ومصدرا للعديد من النظريات والدراسات خاصة في الميدان البلاغي واللساني، والدلالي...فقد كان هناك دافعان أساسيان جعلا الجاحظ يقدم على تأليف هذا السفر هما على التوالي :

–الدافع الأول

إن الحياة العقلية المقعدة التي فرضت على البيئات الإسلامية، قد أوجدت فن المناظرة والخطابة وهما اللونان الأدبيان اللذان كانا يمارسان في بيئة البصرة حيث نشرت الخطابة والجدل والمناظرات بين طوائف الملل والنحل المختلفة، ولما كان أصحاب الكلام قد أخذوا على عاتقهم أن يتصدوا لهؤلاء جميعا فقد حرصوا على إتقان هذين اللونين بحيث جعلوهما صناعة لها أصولها وقواعدها وهذه الأصول والقواعد تلتمس عن طريق تمثل أسرار اللغة العربية، إدراك مواضع الجمال ومواضع القوة فيها والتمرس بالأسلوب المنطقي في التسلسل بالفكرة بالوصول بها إلى غايتها بقصد إفحام الخصم وكذا معرفة الشروط التي ينبغي أن تتوافر في الخطب شكلا وموضوعا.[1]

معنى هذا أن الخطابة لم تعد كما كانت، شيئا يجري به الطبع وتتدفق به العاطفة ويوحي به الوجدان، ولا ريب أن ذلك يرجع إلى سيطرت الروح العقلية على تلك البيئات إذ كانت هذه الروح تستدعي دائما التأمل والنظر، ومراجعة الأسباب واستخلاص النتائج، ومقارنة الحالات المختلفـــة ومثل هذا يمكن أن يتلاءم مع كون الخطابة اندفاعا طبيعيا إلى التعبير والقصد إلى التأثير، كما أن الشأن فيها من قبل فقد دخل موضوع الخطابة مسائل معقدة تعقيد تلك الحياة الجديدة، للنظر العقلي والتأمل المنطقي مجال كبير في تكوينها وتفهمها [2]وإذا كان لأحد من المعتزلة أن يكتب في أصول هذا الفن، فلن يكون لأحد سوى الجاحظ أديب المعتزلة الأول.

– الدافع الثاني

هو الرد على الشعوبية [3] التي كانت تعيب على العرب خطبهم وتقاليدهم في إلقاء تلك الخطب

---

1)– ينظر: المصادر الأدبية و اللغوية في التراث العربي ،ص142.

2)– ينظر: الجاحظ حياته وآثاره ،ص427.

3)- لفظ الشعوبية : لغة مأخوذ من الشعوب :جمع شعب ، وهو جيل من الناس أوسع من القبيلة و أشمل : قال الزبير بن بكار : " الشعب ثم القبيلة ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة ، وعلى هذا فالعرب شعب و الفرس شعب ، والروم شعب و هكذا " (ينظر: أحمد أمين ضحى الإسلام ،ص ص55–56مرجع سابق) و مصطلح الشعوبية يعني تعصب كل شعب لقوميته و حضارته الموالي ، الفرس ، الهنود الروم ، هذه الشعوب ضمها المجتمع

ومنها الإمساك بالعصي، وقد نص الجاحظ في أكثر من موضع من الكتاب على أنه نصب نفسه مدافعا عن فصاحة العرب، داحضا بذلك، اتهامات الشعوبيين [1] فقد قال في فصـــل العصا في الجزء الثالث من الكتاب: "ونبدأ على اسم الله بذكر مذهب الشعوبية ومن يتحلى باسم التسوية وبمطاعنهم على خطباء العرب :بأخذ المخصَرة عند مناقلة الكلام ومساجلة الخصوم بالموزون والمقفى والمنثور الذي لم يقفّ..."[2]

ونستطيع أن نضيف إلى ذلك عوامل ذاتية نفسية داخلية،فالجاحظ في تأليفه هذا الكتاب ربما كان يصغي إلى ذلك الصوت الذي يصيح من أعماق نفسه ويستجيب في نفس الوقت إلى ذلك الحنين الطبيعي الذي يحاول أن يرجع به إلى أيامه الأولى وهي أيام تعتبر وتعبر عن العصر الذهبي للبيان العربي والتي نشأ فيها الجاحظ، ورأى فيها حلقات المتكلمين ومجالس المتناظرين تغمرهم الحماسة الدينية وروح المنافسة والمغالبة والحرص على الإقناع وعلى الظفر بإعجاب هؤلاء النظارة الذين جاؤوا يستمتعون بمشاهدة هذه المناظرات، ويلتمسون هذا النوع من اللذة الفنية، فكان وضع الجاحظ لهذا الكتاب نوع من إرضاء ذلك الحنين الغالب عليه نحو ذلك العهد المنصرم.[3]

4- مفهوم البيان والتبيين عند الجاحظ :

- البيان

عرف الجاحظ البيان تعريفا عاما فقال:"إنه اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتـــك الحجاب دون الضمير،حتى يغضي السامع إلى حقيقته،ويهجم على محصوله كائنا ما ،ومن أي جنس كان الدليل كان ذلك البيان.."[4]فالبيان في هذا التعريف جاء عاما القصد منه الفهم والإفهام ويستدل على ذلك بقوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[5]فكل رسول أرسل إلى قومه بلغة من أجل أن يفهمهم ما أوحي وأن يفهموا عنه، فهذا فيه وجه من أوجه البيان ومدار الأمر والغاية التي يجري إليها القارئ والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبقدر ما أوضحت فهو البيان.[6]

=العباسي ، وبما أن العرب يمثلون الأمة الحاكمة ، فقد اتجهت الشعوبية ضدهم لتثبت للعرب هويتهم ووجودهم و يبينوا لهم أنهم ليسوا أفضل من سائر الأمم حضارة و مزايا "(ينظر : المناحي االفلسفية عند الجاحظ ، ص 25).

1)- ينظر: المصادر الأدبية و اللغوية في التراث العربي ، ص141

2)- البيان والتبيين، ج3، ص5.

3)-ينظر : المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي ، ص141

4)- البيان والتبيين، ج1، ص76.

5)- إبراهيم/4

6)- ينطر:البيان والتبيين،ج1 ، ص76.

وفي موضع آخر يأتي البيان بمعنى البرهان ومما جاء مثله في القرآن الكريم "إن أناسا طعنوا فيه بغير علم ولا بيان" ومن خلال هذه التعريفات التي ذكرها الجاحظ للبيان يمكن القول بأنه اشترط للبيان شرطين أساسيين كما بينهما محمد الصغير بناني في كتابه النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية.

أ- إدراك الحسن والروعة مع ملازمة الواقع والحقيقة دون الاعتماد على المراء (المجاز) لأن غاية البيان هي الفهم والإفهام دون استخدام أي صعوبة في توصيل المعنى للسامع...

ب- التأكيد على الصدق والإخبار عن الحقيقة و إحراز مجانسة لفظية في البيان...والفرق بين المراء والبيان يمكن التماسه في هذا الخبر الذي يجد الجاحظ فيه نوعا من الغبطة في ترداده: وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن الأهتم عن الزبرقان ابن بدر فقال: "إنه لمانع لحوزته مطاع في أدنيه"، قال الزبرقان : إنه يا رسول الله ليعلم مني أكثر مما قال، ولكنه حسدني لشرفي، فقصر بي، قال عمرو: "هو و الله زَمِرُ المروءة ضيق العطن، لئيم الخال"، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم في عينيه فقال: "يا رسول الله، رضيتُ فقلتُ أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أقبح ما علمت وما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الآخرة"، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن من البيان لسحرا".[1]

وفي معرض آخر تحدث الجاحظ عن قضية أخرى هي قضية الإيجاز والإطالة كانت محل نزاع يبينه وبين خصومه، فالشعوبية حسبما يرويه الجاحظ، التي كانت تجعل البلاغة حكرا على العجم وتتهم العرب بالعجز والتقصير فكانت تروج أخبارا عن بعض كبار الشعراء واتهامهم بالإيجاز والتقصير مثل الكميت، والعجاج ورؤبة والهدف من ذلك واحد هو حث العرب على الإحلال في كل شيء وصرفهم عن كل ما يؤدي إلى الإكثار والتوسيع.[2]

ويقول في سياق حديثه عن المعاني " والـــدلالة الظاهرة على المـــعنى الخفي هو البيـــان الذي سمعت الله عزوجل : يمدحه ،ويدعو إليه ويحث عليه، بذلك نطق القرآن وبذلك تفاخرت العرب وتفاضلت، أصناف العجم".[3]

كما أطلق الجاحظ لفظ المنطق كمرادف للبيان، وهو يعني الإفصاح عما في الضمير من

---

1)- نفسه ، ج1، ص349.

2)-النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية، ، ص190.

3)- البيان والتبيين،ج1، ص75.

المعاني بواسطة الألفاظ وغيرها من الدلالات، حيث يقول في هذا الصدد :"وقلنا في الحاجة إلى المنطق وكيف صار أعم نفعا وصار هو المشتق منه والمحمول عليه، وكيف جعلنا دلالة الأسماء الصامتة نطقا والبرهان الذي في الأجرام الجامدة بيانا".

كما تبنى أبو عثـــمان التعريف القديم للإنسان فهو الحي الناطق[1] المبين إذ أن البيان أو الدلالة أساس انطلق منه تصور جامع مانع لمفهوم الإنسان المبين عن المعاني الكامنة في داخله و في العالم المحيط به و هو التصور نفسه الذي نجده عند أرسطو فالقدرة على التعبير عن الحاجات الغائبة في النفس هي أهم خصائص الإنسان التي تميزه عن الحيوان و هي ميزة منبثقة من وجود العقل [2] .

– التبيين

إن مفهوم التبيين يقترب من مفهوم البيان إلا أنه يختلف عنه بتضعيف عين الفعل أو المصـــدر فينتقل المعنى من البيان إلى حسن البيان وبالتالي نجد في مفهوم التبيين اهتمام المتكلم بالمخاطب وتوجيه الكلام إليه، فالغاية من تضعيف العين كثيرا ما يؤتى بها للتعدية فهناك فرق بين : بين وبيّن، كما أنه يأتي بها للتكثير وهكذا يكون مرادفا للبيان مع ميزة تميزه عنه هي التأكيد أو التوسيع في المعنى، إلا أن حسن البيان يقتضي إعدادا خاصا وتعليما ورياضة فإنه أكثر ما يلاحظ عند المعلمين[3].
وإذا أردنا أن ندرك جيدا مفهوم التبيين علينا أن ندرسه من خلال مفهومين آخرين هما الفهم والإفهام، يقول الجاحظ :"بعد أن ذكر أن مدار الأمر على البيان والتبيين، والمفهم لك والمتفهم عنك شريكان في الفضل ،إلا أن المفهم أفضل من المتفهم وكذلك المعلم والمتعلم " [4]وهذا ما أشرت إليه في الفقرة السابقة. ومن خلال ما تقدم نستنتج أن الجاحظ في تصنيفه للبيـــان كان على شكل الفـــهم

---

1)– قد جاء في لسان العرب في مادة (نطق): نطق الناطق ينطق نطقا : تكلم والمنطق الكلام، والمنطيق البليغ، أنشد ثعلب:
والنوم ينتزع العصا من ربها – ويلوك ثني لسانه المنطق . وقد نطقه الله واستنطقه: أي كلمه وناطقه وكتاب ناطقا : يبين على المثل كأنه ينطق... وكلام كل شيء: منطقه ومنه قوله تعالى : "علمنا منطق الطير" .
قال بن سيده: "وقد يستعمل النطق في غير الإنسان كقوله تعالى : "علمنا منطق الطير "(ينظر: لسان العرب ج10، ص354.)
إلا أننا نجد أن مادة (نطق) تكررت في القرآن الكريم 12 مرة بالمرسلات، الآية 35، النجم الآية 3، الذاريات، الآية 23 الجاثية الآية 29.
– سورة فصلت الآية 21 (مرتان) – الصافات، الآية 92 – النمل الآية 85 –سورة المؤمنون، الآية 62 – الأنبياء: الآية 65–
أما كتب التفسير تجمع على أن النطق معناه الكلام و يكون من الإنسان ، كما يكون من غيره قال تعالى: "وورث سليمان داوود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين " النمل / 16، وقال أيضا "ولا نكلف نفسا إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق، وهم لا يظلمون" المؤمنون / 62.
2)– البيان والتبيين، ج1، ص ص57– 109.
3)– ينظر: النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية، ص207.
4)– البيان والتبيين، ج1، ص11–12.

والتبيين على شكل الإفهام ويتضح هذا جليا في الشكل الآتي:

الإفهام	الفهم
المتكلم	المخاطب
المفهم لك	المتفهم عنك
المفهم	المتفهم
المعلم	المتعلم
القائل	السامع
سوء الإفهام	سوء الفهم
الناطق	السامع
الإفهام إذا حدّثت	التفهم إذا حدثت
التبيين	البيان

يبدو للوهلة الأولى أن هذا المخطط فيه تناقض لكون أن للبيان علاقة بين المتكلم والمخاطب لكن هذا التناقض، سيزول إذا أخذنا في الحسبان الطرف الثالث المعنى في كل أداء كلامي [1]،وهو الدليل، لأن المتكلم بالنسبة لهذا الأخير هو في وضعية مخاطب وهذا ما يوضحه لنا الجاحظ في نص آخر يقول فيه :"...وإنما مدار الأمور الغاية التي يجري إليها ،الفهم ثم الإفهام، والطلب ثم التثبت"[2]فالفهم هو -الطلب- طلب المتكلم المعنى من الدليل (العلامة)و طلب المخاطب المعنى من المتكلم والإفهام هو التثبت: إفهام المتكلم المخاطب والتثبت في إيصال المعنى إليه[3] فمدار البيان بالنسبة لكل من المتكلم والسامع ينطلق فيه من اللفظ نحو المعنى هو الغاية التي يسموا إليها كل من المتكلم والسامع[4] .

أما فيما يخص التبيين فلا يكون إلا من المتكلم ويتجلى في صورة لفظ (تلفظ) فمع اللفظ تكون

1)- النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية ،مرجع سابق ص212.

2)- البيان والتبين، ج2، ص39.

3)- النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية ، ص213.

4)-ينظر : النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية ، ص213.

عملية النطق وكيفية صدور الصوت وما يستتبع هذا من حركات اللسان والشفتين [1]فالتلفظ لا يكون إلا من المتكلم وبالتالي صدور الخطاب أو الرسالة التي يرسلها المتكلم إلى المخاطَب، واللفظ هو الذي ينشئ خطاب المتكلم وبلاغة للسامع [2] .

ومهما يكن من وجود فروقات بين البيان والتبيين فما هما إلا كيفية من أبي عثمان للتعبير عن فلسفة الكلامية الرامية إلى التوفيق –ربما- بين الدين والعقل وجعل الثاني سليل الأول لما كان العالم الصغير سليل العالم الكبير[3- 4].

5- القيمة التاريخية والأدبية للبيان والتبيين :

بعد أن أعطينا فكرة عامة عن حياة الجاحظ وعصره ودوافع تأليفه للكتاب وكذا لغته وأسلوبه فيه وما احتواه الكتاب من موضوعات وما كان يعنيه من البيان والتبيين، نصل الآن للحديث عن القيمة التاريخية والأدبية للبيان والتبيين ومنزلته الرفيعة وشهرته الواسعة التي نالت إعجاب الكثير من العلماء والباحثين على مر الزمان، ومن بين هؤلاء شيخ المحققين الأستاذ عبد السلام محمد هارون يقول فيه:"لعل من نافلة الكلام أن أردد القول في عظيم أثر هذا الكتاب ويمكنني أن أقول في ثقة إنه ليس يوجد أديب نابه في العربية لم يسمع بهذا الكتاب أو لم يفد منه، وقلما تجد أديبا من المحدثين لم يتمرس بما فيه من أدب"[5]، ويقول أيضا، "وكتاب البيان التبيين لا جرم أنه أيسر كتب أبي عثمان وأكثرها تداولا وأعظمها نفعا، وعائدة فيه تخرج كثير من الأدباء، واستقامت ألسنتهم على الطريقة المثلى، فهو أستاذ أرهاط متعاقبة من المتأدبين وهو شيخ جماعات متتابعة مما صقلوا ذوقهم بصاقل الجاحظ ، و رفعوا فيهم بالتأمل في فنه وعبقريته [6] .

---

1)- ينظر: إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية،1997، ص38.

2)- ينظر : النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية ، ص 214.

3)- إن نظرية البيان نظرية تسعى جاهدة للإجابة عن كل الأسئلة المتعلقة بحياة الإنسان فجعل البيان أهم خصائص هذا المخلوق (الإنسان)وقد رأى أبو عثمان أنه عالم صغير لأنه يحتوي على جميع أشكال العالم الكبير (العالم الخارجي)، كما أنه يستطيع أن يصور بيده كل الأشياء في هذا العالم ويستطيع أن يقلد كل شيء بلسانه يقول: "ولذلك زعمت الأوائل أن الإنسان إنما قيل له العالم الصغير سليل العالم الكبير لأنه يصور بيده كل صورة، ويحكي بفمه كل حكاية، ولأنه يأكل البنات كما تأكل البهائم، ويأكل الحيوان كما تأكل السباع إن فيه من أخلاق جميع أجناس الحيوان أشكالا، وإنما تهيأ وأمكن الحاكية لجميع مخارج الأمم، لما أعطى الله الإنسان من الاستطاعة (البيان) والتمكين ،وحين فضله على جميع الحيوان بالمنطق والعقل والاستطاعة ... " (البيان والتبيين، ج1، ص70).

4)- ينظر :النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية ،ص214

5 – مقدمة البيان والتبين، ج1، ص5

6)-ينظر : نفسه ، ص 14.

ويمكننا أن نميز في كتاب البيان التبيين قيمتين جد مهمتين : قيمة أدبية و الأخرى تاريخية :

– **فأما الأدبية** فإن كتاب البيان و التبيين يعد مصدرا من مصادر تاريخ الأدب لما انطوى عليه من أخبار الشعراء والخطباء فقد حفل بالكلام عن مقامات الشعراء في الجاهلية والإسلام ، حوى خطبا للرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ، كما حوى وصايا و رسائل و مراثي و أوصافا و أدعية للأعراب و غير ذلك ، حتى عُدّ من المراجع الهامة للأدب الجاهلي والإسلامي و الأموي و لأدب صدر الدولة العباسية والجدير بالذكر أن كتاب البيان و التبيين يعد أولى المحاولات للتصنيف في علوم البلاغة، وقد عالج فيه الجاحظ البيان والبلاغة و اللفظ واللغة والكلام المحذوف وغيرها من المواضيع البلاغية ، لكن الكشف عن الحدود الواضحة للبلاغة والتعاريف الدقيقة لها لا تتأتى إلا بالبحث عنها بين الأمثلة الموجودة فيه ، يقول أبو هلال العسكري " إنه كثير المنافع جم القواعد إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه منتثرة في أثنائه فهي ضالة بين الأمثلة ، لا توجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير "[1] فضلا على أن الكتاب أصل من أصول الأدب فإن قيمته في البيان العربي خطيرة (مهمة) لما أودع فيه من شتى البحوث و الآراء في البلاغة وعناصرها ومذاهبها وألوانها ، سواء كانت هذه الآراء من جمع الجاحظ و روايته أم من ابتكاره وتحديده ،يقول الأستاذ عبد الله إسماعيل الصاوي:" كان كلام الجاحظ (في هذه الأمور) مجملا وبحثا لا يراد منه تدوين علم البلاغة أو لا تبيّين أقسامها وقواعدها ، فلم يعد تفسير آية أو شرح حديث أو رواية شعر أو خطبة أو رسالة أو كلمة بليغة أو شرح كلمة لغوية ، ومن أجل ذلك يعتبر كتاب أدب ومحاضرات وهي في الحق طريق أخرى من دارسة البلاغة في عصرنا هذا، فقد تخرج عليها أساتذة كثيرون لأنها طريقة عملية مفيدة تعتمد على محاكاة البلغاء وحفظ كلام الفصحاء....فكتاب "البيان والتبيين" يمثل الطريقة التي ينبغي أن يسير عليها طالب البلاغة في عصر الجاحظ و العصور التي تلت عصره"[2]وللكتاب أثر في النقد لا يزال إلى اليوم موضع اهتمام من طرف الباحثين يقول الجاحظ مثلا : " كان عبد الحميد الأكبر و المقفع مع بلاغة أقلامهما وألسنتهما ، لا يستطيعان من الشعر إلا ما لا يذكر مثله ، وقيل لابن المقفع في ذلك فقال " الذي أرضاه لا يجيئني و الذي يجيئني لا أرضاه " وقال متعرضا للفرزدق " هذا الفرزدق مستهزئا بالنساء و كان زير غوانٍ

---

1)– أبو هلال العسكري – الصناعتين ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان (1409هـ – 1989م) ص 13

2)– ينظر : حنا الفاخوري ،الموجز في الأدب العربي وتاريخه ، ط 2 ، دار الجيل ، بيروت لبنان 1991 ،ج2، ص ص 104 -105

وهو في ذلك ليس له بيت واحد في النسيب مذكور ، ومع حسده لجرير وجرير عفيف لم يعشق امرأة قط ، وهو مع ذلك أغزل الناس شعرا "[1].

– **وأما التاريخية**، فالسمة الغالبة عليه هو أنه مظهر من مظاهر امتزاج الثقافات في عصر الجاحظ لذلك قال أحمد أمين في ظهر الإسلام " كتاب البيان والتبيان و الحيوان خير كتبه التي يظهر فيها الامتزاج واضحا قويا و الذي يهمنا هنا مظهر امتزاج الثقافات في الكتاب ، والحق أن الثقافة العربية كان لها النصيب الأوفر والأكبر ، والسبب في ذلك أن الكتاب كتاب أدب ، وكيف أثرت تلك الثقافات في الأدب ، وأنه أقل منها في العلوم يقارن بين أراء الأمم في تعريف البلاغة يقول " قيل للفارسي ما البلاغة ، قال معرفة الفصل من الوصل ، وقيل لليوناني : ما البلاغة ؟ قال تصحيح الأقسام ، واختيار الكلام ، وقيل للرومي : ما البلاغة ؟ قال حسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارة يوم الإطالة، وقيل للهندي ما البلاغة ؟ قال وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة"[2].

وحكى أن للفرس كتابا في صناعة البلاغة ، وأن لليونان منطقا يعرفون به السقم من الصحة والخطأ من الصواب ، وأن للهنود كتبا في الكلام والأسرار من قرأها عرف غور تلك القول ومغزاها و غرائب تلك الحكم ومرماها يرى أن كلام الفرس يصدر عن فكرة وطول روية واجتهاد وخلوة ومشاورة و معاونة أو كلام العرب صادر عن بديهة وارتجال حتى كأنه الهام [3].

أضف إلى ذلك حديثه عن أقوالٍ في الرهبان وعوائدهم وفي مذهب التناسخ عند الهنود وفي الزهد والمواعظ ونصائح اليهود والمسيحية ، وفي صور ثقافية أخرى لا حصر لها [4] يقول جورج غريب " أن اللون العربي في هذا المؤلف الأدبي الساطع المظهر، واضح الملامح السيميائي في ردود الجاحظ على الشعوبية في القسم الأول من الجزء الثالث"[5] فعلى الرغم من الكتاب احتوى على مزيج من الثقافات حيث عرض أدب العرب وأدب الفرس، وحكم الهند ونصائح اليهودية والمسيحية إلا أن الحظ الأوفر كان للأدب العربي لأن ذلك هو موضوعه ومبتغاه، وهكذا كان لمترلة البيان والتبيين ومقامه الرفيع الأثر الواضح في انتشاره، و ذيوع صيته فكانت له المكانة الأكبر في توجيه التأليف العربي فقد سار على دربه العديد من لهم الفضل في هذا الباب كابن قتيبة الذي تبع الجاحظ في

---

1)–الموجز في تاريخ الأدب العربي و تاريخه، ص 106

2)– البيان و التبيين ،ج1،ص 88

3)– ينظر : أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة و النشر ، القاهرة،ط7، 1964م ، ص 55.

4) – ينظر: الجاحظ دراسة عامة ،ص ص 97-98.

5)– الجاحظ دراسة عامة ،ص98.

منهجه في التأليف، وكذلك ابن عبد ربه في العقد الفريد وأبو الفرج الأصبهاني في الأغاني والمصري في زهر الأدب وابن رشيق في العمدة وغيرهم...والحق أن الكتاب كان من أروع وأنفع مؤلفات الجاحظ على الإطلاق فها هو ابن رشيق يشير في كتابه العمدة إلى قيمة الكتاب بقوله: "وقد استفرغ أبو عثمان الجاحظ وهو علامة وقته الجهد وضع كتاب ليبلغ جودة وفضلا".[1]

1)- ابن رشيق القيرواني، العمدة في نقد الشعر وتمحيصه، دار صادر، بيروت ط1،، 2003، ص216.

الفصل الأول

العلامة عند الجاحظ

أولا– أسس تصور العلامة عند الجاحظ

ثانيا– مفهوم العلامة عند الجاحظ

ثالثا– المواضعة اللغوية عند الجاحظ

رابعا– أنواع العلامة عند الجاحظ

أولا – أسس تصور العلامة عند الجاحظ

البصرة مدينة عراقية نالت شهرة واسعة لما حفلت به من مآثر وأمجاد ومادار فيها من أحـــداث باعتبارها مدينة تأثرت بظروف تاريخية وبألوان ثقافية مختلفة،قد ورثتها من ماضيها التليد باعتبارهـــا إقليم تعرض لكثير من المؤثرات وصنوف شتى من الثقافات يمكن أن يرد إليها كثير مـــن الصـــفات العقلية التي امتازت بها البصرة وتميزت بها عن نظائرها وبذلك كانت قطرا كثر به النشاط العقلـــي- نشاط عقلي عجيب- في هذه المدينة الإسلامية[1] فموقعها الجغرافي أهّلها لأن تكون ملتقى لمختلـــف الأجناس وتظم عددا من الثقافات وبالتالي تكوّن لدى البصريين نزعة عقلية متميزة ضاربة في أنحـــاء المدينة .

معلوم أن الجاحظ بصري المولد والنشأة والوفاة فكان شديد التعلق بها والحنين إليها فهو يعتبر صورة صادقة للبيئة البصرية بمختلف نواحيها [2] حيث كانت تسود نزعة عقلية متكونة من ثقافـــات جديدة على الحضارة الإسلامية لم تألفها من قبل، فكان للثقافة الفارسية نصيب مـــن شـــعر وأدب وحكم وقصص [3] وللثقافة الهندية نصيب تمثلت في أبحاث الفلسفة وتعليم الرياضة، كمـــا أدخلـــت قصص وحكما أدبية وشعائر وتقاليد اجتماعية [4] أما الثقافة اليونانية فكان لها الحظ الأوفر وذلك إلى ما أنتجه الفكر اليوناني وقيمته وطرافته في مختلف الميادين سواء كانت فلسفة أو علما أو أدبا أو فنا[5] ومهما يكن من هذه المؤثرات التي أحاطت بالجاحظ إلا أنه يمكننا أن نقول أن الفضل الأول لتميزه من الناحية المنطقية كونه كان متكلما معتزليا [6].

كما يعتبر الجاحظ إماما من أئمة المعتزلة[7]وشيخا من كبار شيوخها المتكلمين الذين كان لهم تأثير

---

1)- ينظر : الجاحظ حياته وأثاره ،ص 21.

2)- ينظر :المرجع نفسه، ص15.

3)- ينظر : أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، دار الكتاب العربي ، بيروت – لبنان ،ط10 ج1 ، ص 164 وما بعدها .

4)- ينظر : نفسه ، ص 229 وما بعدها

5)- ينظر : فكتور شلحت ، الترعة الكلامية في أسلوب الجاحظ ، دار المشرق ، ش م م ط 3 ، سنة 1992 بيروت لبنان، ص 20

6)- ينظر : نفسه .

7)- المعتزلة فرقة إحدى أكبر الفرق الإسلامية ظهرت كغيرها من الفرق الإسلامية الأخرى كالشيعة والخوارج والمرجئة بعد الفتنة الكبرى التي وقعت بين علي ومعاوية في نهاية العقد الثالث من الهجرة وخلافا للفرق الأخرى التي برز معظمها على شكل ضرب سياسي ديني مذهبي وعسكري فإن فرقة المعتزلة برزت على شكل مدرسة فكرية تضع العقل والمنطق والكلمة فوق كل قوة وكل اعتبار، فمذهبها يقوم على أصول خمسة: التوحيد العدل ، المنزلة بين المنزلتين ، الوعد والوعيد ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهم أول من حاول أن يقدم عرضا منظما للعقائد الإيمانية محاولين فهم العقيدة الإسلامية بما يتفق مع مقتضيات العقل والدفاع عنه لهذا فإن البعض لا ينظر إليهم على أنهم علماء عقائد فحسب بل يعتبرهم فلاســـفة بمعـــنى الكلمة (ينظر : طاهر حمزة ، مشروع معجم موسوعي صغير ، آداب وعلوم شيخ الزمان، ص ص 163-164).

كبير على الساحة الدينية والعقدية بانفراده بآراء خاصة به اتبعه عليها جمع من الناس[1]هذه الثقافات كان لها دور كبير في تكوين ثقافة ومعرفة الرجل ناهيك عن العلماء الأفذاذ[2] الذين أخذ عنهم كما أنه كان ممن يصبرون على المطالعة والبحث والتنقيب لساعات وساعات دون كلل أو ملل حتى قيل: " ثلاثة لم ير قطّ و لم يسمع أحب إليهم من الكتب والعلوم: الجاحظ، الفتح ابن خاقان، وإسماعيل ابن إسحاق القاضي، أما الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب إلا استوف قراءته كائنا ما كان حتى أنه كان يكتري دكاكين الورقيين ويثبت فيها النظر " [3].

من خلال هذه الجولة السريعة التي أردنا لا من ورائها التأسيس والتمهيد للأسس التي تصور بيها الجاحظ العلامة وتصنيفه لها يبدو أنه كان ينطلق من مبدأين أساسيين: العقل والدين، العقل لأنه كان من الذين أطلعوا على الثقافة اليونانية من فلسفة ومنطق، أما الدين لأنه كان متكلما معتزليا.

أما تصنيفه للعلامة كما قلت سلفا كان يستند على طابع ديني عقدي مستعملا النظر العقلي ومنهجا علميا نفعيا معتمدا في ذلك على مفهوم واسع هو الحكمة التي مفادها التأمل في هذا الكون وما فيه من علامات للوصول إلى معرفة الله سبحانه وتعالى ومن ثمة الإيمان به والعمل بكتابه الكريم باعتباره أحد الأسباب المهمة التي جعلت علم الكلام ينشأ، ومن بين هذه الأسباب الخلاف حول آيات القرآن المتشابهة[4] وبالتالي العلامة كانت تستمد فاعليتها من طابع إسلامي بحت فالمتكلم كان لا يستند إلى براهين واهية للقضية التي يعرضها بل يعمل العقل ويتحرى الموضوعية[5] مجتبيا أدلة وحججا

= لماذا سميت هذه الفرقة المعتزلة ؟ يقول الشهرستاني: ((دخل واحد على الحسن البصري فقال : يا إمام الدين لقد ظهرت في زماننا جامعة يكفّرون أصحاب الكبائر .. وجامعة يرجئون الكبائر .. فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقادا ؟ ففكر الحسن في ذلك وقبل أن يجيب قال واصل ابن عطاء: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن ولا كافر مطلقا بل هو في مترلة بين المترلتين لا مؤمن ولا كافر ، ثم قام واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن فقال الحسن اعتزل عنا واصل فسمي هو وأصحابه معتزلة)) (هينري كوربان، تاريخ الفلسفة الإسلامية ، منشورات عويدات – بيروت – سنة 1977، ص 171).

1) – ينظر : أبو عثمان الجاحظ ،ص 145.

2)- لقد لدرس الجاحظ الحديث على يد أبي يوسف يعقوب ابن إبراهيم القاضي ويزيد ابن هارون والسرّ ي بن عبدويه والحجاج بن محمد وحماد بن سلمة بالإضافة إلى ابن الأشرس الذي لازمه الجاحظ في بغداد كما أخذ النحو عن أبي الحسن الاخفش، والكلام عن النظّام كما عاصره من اللغويين أبو عبيدة معمر ابن المثني و الأصمعي و ابن الأعرابي و أبو عمر الشيباني وأبو زيد الأنصاري وابن سلام الجمحي أما من المتكلمين والفقهاء والفلاسفة فقد عرف أبو هذيل العلاف نوبشر بن المعتمر ومويس بن عمران وهشام بن الحكم وضرار بن عمرو والكندي ... (للاستزادة ينظر : شارل بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسمراء،ص171).

3)- محمد ابن إسحاق أبو الفرج ابن النديم، الفهرست ، دار المعرفة ،بيروت، 1978،ج1 ،ص 169.

4)- ينظر : الترعة الكلامية في أسلوب الجاحظ ،ص 26

5)– الموضوعية:(objectivité)يكون الشيء موضوعيا إذا كان وجوده مستقلا عن الذات التي تدركه أي إذا كان موجودا في الخارج ونقول عن

.نظرية لسند القضية التي يعرضها1 وهذا ما تحدث عنه ابن خلدون حيث يقول: " فموضوع علم الكلام عند أهله إنما هو العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع من حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية"2 فالعقل تقوم وظيفته على اكتساب العلم ليس اكتسابا عشوائيا بل يقوم على الأدلة وذلك باستخراجها وفهم عللها كما أن للعلم علاقة مع الحكمة التي صرح بها الجاحظ في الصفحات الأولى من كتاب الحيوان بقوله:" وجدنا كون العالم بما فيه حكمة ووجدنا الحكمة على ضربين شيء جعل حكمة وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة ، وشيء جعل حكمة وهو يعقل الحكمة وعاقبة الحكمة ، فاستوى بذلك الشيء العاقل وعد العاقل في جهة الدلالة على أنه حكمة واختلفا من جهة أن أحدهما دليل لا يستدل والآخر دليل يستدل"3 فالمتأمل في هذا النص العجيب يجده يحتوي على ضربين من الأدلة هما : العاقل وغير العاقل من حيث كونهما دالين على الوجود وهذا الوجود يحتاج إلى تأمل وإعمال الفكر للوصول إلى كنه قدرة الخالق وتدبيره في خلقه وحكمته في ذلك فوجودهما أنهما كان على نوعين : شيء جعل حكمة وهو لا يعقل ذلك (الحيوان والنبات والجماد) وهو غير عاقل ، قال تعالى : ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[4]وشيء جعل حكمة وهو يعقل ذلك وهو الإنسان الذي يتميز بالعقل قال تعالى :﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[5]، فالعاقل دليل و علامة يدرك وجوده و وجود الأشياء الأخرى من جماد ونبات وحيوان مستعملا عقله، بينما غير العاقل هو دليل على وجوده فقط لفقدانه العقل الذي يمكنه من الاستدلال فالعاقل حكمة يستدل على الحكمة وبالتالي معرفة ما استخرن الدليل من البرهان وحشي من الدلالة

= الشخص أنه موضوعي إذا كان ينظر إلى الأشياء والأمور على ما هي عليه دون يخضع نظريته تلك تأثير الميول والرغبات الذاتية والأفكار المسبقة فإذا أردنا إن نكون موضوعيين علينا إن نتجرد من كل الدوافع الذاتية والابتعاد عليها في بناء الموضوعية هي ميزة المعرفة التي تكون مستقلة عن العارف وهي من أهم خصائص المعرفة العلمية كما أنها من أهم المبادئ تقول عليها الروح العلمية .(ينظر : المعجم الموسوعي ،ص 166).

1)- ينظر : النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ ،ص 26 .

2)- عبد الرحمن بن محمد الحضرمي ، مقدمة ابن خلدون ، دار المعرفة ، بيروت ،ط5، 1984،ج1،ص 463.

3)- الجاحظ أبو عثمان ، الحيوان ، تح : عبد السلام محمد هارون ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط1، 1969،ج1، ص33.

4)- الغاشية / 17-18-19-20 .

5) - البقرة / 164

وأودع من عجيب الحكمة "1 غير أن تأليف الجاحظ لكتاب الحيوان لم يكن ضربا من المصادفة أو قتل للوقت بل كان يهدف من ورائه- فيما نرى- إلى عجيب صنعة الخالق و تدبيره لمخلوقاته فهي علامات دالة على قوته ، فهو حاول إن يبرز علل وأسباب تصرفات بعض الحيوانات مهما صغر حجمها وقل شأنها في عيون الناس" 2 هذه المعرفة اليقينية لصاحب الحق تحتاج إلى عقل متأمل ومعتبر و الارتقاء من المعارف الحسية إلى المعارف العقلية ومن الشك إلى اليقين وهو نهج علمي خالص من ابتكار الجاحظ فالشك كما هو معروف أحد أسس العلم و الغرض منه إثبات صحة الموضوع والوصول إلى اليقين يقول في ذلك النظّام 3: " الشاك أقرب إليك من الجاحد و لم يكن يقين قط، حتى صار فيه شك و لم ينتقل أحد من اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك"4 وهكذا نجد أبا عثمان يحث على شك العلمي الموصول إلى اليقين بالاعتماد على العقل قائلا: "أعرف مواضع الشك5 وحالتها الموجبة له لتعرف بها مواضع اليقين الموجبة له وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلما ، فلو لم يكن في ذلك إلا أن تعرف التوقف ثم التثبت لقد كان ذلك مما يحتاج إليه ،ثم اعلم أن الشك في طبقات عند جميعهم و لم يجمعوا على أن اليقين طبقات في القوة والضعف و لما قال أبو الجهم للمكي : أنا لا أكاد أشك، قال المكي :" و أنا لا أكاد أوقن ففخر عليه المكي بالشك في مواضع الشك ففخر عليه أبو الجهم باليقين في مواضع اليقين"6 لأن الشك هو الطريق و السبيل الوحيد الموصل إلى الحقيقة فهو في نظرنا نوع نوع من التأكيد وضرب من التكرير لبحث الأمور أكثر فأكثر و زيادة في التحري و بالتالي لا يذهب جهدنا سدى و العقل سلطان ذلك فهو الحكم يقول الجاحظ في ذلك : " لعمري إن

---

1)- ينظر :الجاحظ أبو عثمان ، الحيوان ،تح: د/ يحي الشامي دار مكتبة الهلال :، 1997 ، ج1 ص 34.

2)- ينظر : نفسه ، ج3 ،ص299 .

3)- النظام هو إبراهيم ابن سيار (ت 231هـ / 845م) تلميذ أبي الهذيل العلاف متكلم معتزلي نشأ في البصر ة وأقام في بغداد منطقي و شاعر ترك آثرا كثيرة في تاريخ الفكر الإسلامي معلم الجاحظ ، عارض آراء الفقهاء و انتقد الجبرية والمرجئة إليه تنسب النظّامية من فوق المعتزلي ... (ينظر: المنجد في اللغة والأعلام طبعة جديدة ومنقحة ، دار المشرق بيروت ، ط 39 ، سنة 2002،ص 594).

4)- الحيوان ، ج 6،ص 36

5)ـ الشك(doute) هو التردد وعدم اليقين وقد عرفه عبد القاهر في كتاب "التعريفات" بقوله: ((هو التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر)) والشك ليس جهلا كما يظن البعض فتردد الشخص الشاك و توقفه عند إصدار حكم ما مرده إلى كونه أطلع على مختلف الآراء و ناقشها و نقدها و بالتالي شك فيها جميعا إما تتساوى أمارات الصدف فيها وإما لخفائها و الشك عند الفيلسوف يختلف عند الشخص الأمي فهو عند الأول موقف واع قائم على معرفة مبررات – الأسباب و العلل – التي تستوجب التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر الشك نوعان : شك مذهبي يتخذه صاحبه مذهبا له في التفكير و الحياة ، وشك منهجي يتخذه صاحبه منهجا و طريقة في التفكير للوصول إلى الحقيقة واليقين (ينظر : مشروع معجم موسعي ، ص ص 145 146) .

6) ـ الحيوان ، ج 1 ،ص 35

العيون لتخطئ فلا تذهب إلى ما تريك العين و اذهب إلى ما يريك العقل ، و الأمور حكمان : حكم ظاهر للحواس و حكم باطن للعقول و العقل هو الحجة "1 إذ العقل هو الفيصل في نظر الجاحظ فالحواس تبقى قاصرة لأنها لا ترى إلا ما هو ظاهر للعيان ، فهو يدعو إلى استعمال العقل و تجديد الفكر لأنه يرى في عدم الفكرة يكون عدم الحكمة و في التفكير شحذ للأذهان و تنبيه لذوي الفعلة و تحليل لعقدة البلادة و الغباوة وسبب لاعتياد الروية2 .

لقد كان العقل أداة للجدل[3] و نعني به جدل المتكلمين الذين كان الجاحظ يتزعمهم فمن بين جملة ما اعتنى به المتكلمون أيما اعتناء تفسير آيات القرآن الكريم و الدفاع على أنفسهم على ضوء المعطيات الدينية و الفكرية المبنية على المنطق كما تناولوا الخلق من حيث هو مظهر يعرب عن خالق و عن قدرته ، و كانوا يستعملون في ذلك الجدل و التحليل و التعليل المنطقي[4]، و من بين علماء اللغة المحدثين الذين يعترفون بفضل العقل العالم اللساني الأمريكي نوام تشو مسكي الذي يرى أن العقل مصدر كل معرفة [5].

يقول الجاحظ في نص آخر : "فليس لقدر الكلب و الديك في أنفسهما أثمانهما و مناظرهما و محلهما من صدور العامة ، أسلفنا هذا الكلام و تبرأنا بهذا القول و لسنا نقف على أثمانهما من فضة وذهب وإلى أقدارهما عند الإنسان و إنما ننظر فيما وضع الله –عز وجل- فيهما من الدلالة عليه و على إتقان صنعة الله تعالى و عجيب تدبيره وعل لطيف حكمته و فيما اختزنهما من عجائب المعارف وأودعهما من غوامض الإحساس و سخر لهما من عظام المنافع و المرافق ، و دل بهما على أن الذي ألبسهما ذلك التدبير و أدعهما تلك الحكم يجب أن يفكر فيهما أو يسبح لله –عز و جل- فغشي ظاهرهما بالبرهان وعم باطنهما بالحكم ... ليعلم كل ذي عقل أنه لم يخلق الخلق سدى و لم يترك

---

1)– نفسه ، ص 207

2)- ينظر : أبو عثمان الجاحظ ، مرجع سابق،ص 166 .

3) – الجدل (dialectique) : الجدل في الأصل فن الحوار و المناقشة قال أفلاطون في محاورته كراتيل (cratyle) " الجدلي هو من يحسن السؤال و الجواب " و يقصد به أيضا المهارة في الخصومة و إبطال رأي الخصم أو حمل الخصم على العدول عن رأيه و تغييره بالحجة و الدليل و الجدل بهذا المعنى هو أسلوب المناظرة عند علماء الكلام و الخطباء مقابل الاستدلال العقلي أو البرهان عند الفلاسفة ... و جملة القول إن الجدل ليهدف كما هو شأن البرهان أو القياس البر هاني الذي ينطلق من مقدمات يقينية بل الجدل قياس مفيد للتصديق لا يعير أي اعتبار للحقيقة أو عدمها بل يهدف إلى عموم الاعتراف و التسليم فالجدل عند أفلاطون هو ارتقاء الفكر بالتدرج من التصورات الحسية إلى التصورات العقلية الخالصة و يسميه بالجدل الصاعد (dialectique transcendante)(ينظر:مشروع معجم موسوعي،ص132)

4)- ينظر : صموئيل عبد الشهيد، الروح العلمية عند الجاحظ في كتاب الحيوان، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1975، ص51.

5)- ينظر: أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، 2002، ص205

الصور هملا، وليعلموا أن الله- عز و جل- لم يدع شيء غفلا غير موسوم و نثرا غير منظوم ..."[1].

إن مدقق النظر في هذا النص يلحظ أن الشغل الشاغل لأبي عثمان هو الحكمة التي تهدف إلى التأمل في هذا الكون وما فيه من كائنات باعتبارها علامات دالة على معرفة الله الخالق سبحانه و تعالى وذلك باستعمال العقل الذي أعطاه الله للإنسان من أجل الاعتبار و التفكير الموصولين إلى المعرفة التي كان الجاحظ يخضعها للشك العلمي الموضوعي وصولا بها إلى يقين معتمدا في ذلك على الملاحظة العلمية ومن ثمة التجريب ليرى الأمور مع عللها و براهينها ، فهو يلاحظ و يحس و يتدبر كل شيء في الكون و إن كان بسيطا يقول : " أوصيك ألا تحقر شيئا لصغر جثته و اعلم أن الجبل ليس بأدل على الله –عز وجل- من الحصاة .."[2] ، كما أن الجاحظ لم يكتف بما سمعه بل كان يتحقق الأمور بنفسه بإجراء التجارب و من أمثلة ذلك قوله :" إن الناس تزعم أن الأفاعي تكره ريح السذاب و الشيح " وعندما تحقق من ذلك قال :" أما أنا أني ألقيت على رأسها و أنفها من السذاب ما غمرها فلم أجد على ما قالوا دليلا "[3] .

وهكذا كان الجاحظ ممن أخضعوا العلوم إلى منهج علمي تجريبي ، هذا المنهج الذي يعبر على روح الفكر الإسلامي من حيث كونه فكرا علميا جادا ، و مراعيا في نفس الوقت خصوصية الحياة العربية الإسلامية المتميزة عن غيرها كونها تحمل تصورا و فكرا مغايرا عن نظيرتها من الأمم الأخرى وبذلك استطاع الجاحظ أن يوظف هذا المنهج بكل وضوح في تصوراته الخاضعة لفكر العلامة وما بث في الكون من شواهد و علامات دالة على وحدانية الله و باعثة على معرفته والإيمان به، و بالتالي كانت تصوراته للعلامة عبارة عن تأملات إيمانية بحتة .

من خلال ما تقدمه يمكننا القول : إن الأسس التي توصل بها الجاحظ إلى تصور العلامة كانت وفق منظور ديني عقدي عقلي مبني على الشك الموصل إلى اليقين و الهدف الذي كان يرمي إليه الجاحظ- كما أشرنا إلى ذلك سابقا- هو معرفة الله- عز وجل- والإيمان به، إيمانا مبنيا على ما نشاهد في هذا العالم الرحب الفسيح وإتقان صنعة الخالق باستعمال العقل ، فهو هبة عظيمة من الله تمكن المرء من معرفة نفسه ظاهرا وباطنا – والعالم المحيط به .فالعقل هو الوسيلة الوحيدة التي منحها الله للإنسان لتمييزه عن سائر مخلوقاته فعلى الإنسان أن يشكر الله على تلك الهبة والنعمة ويستغلها

---

1) - الحيوان ،ج1،، ص ص 119-120.

2)- نفسه ، ج3 ، ص 219.

3)- نفسه ، ج5 ، ص 36.

خير استغلال مثل ما استغل الجاحظ عقله في التأمل والتدبر في أدق مخلوقات الله سبحانه وتعالى كما أنه من واجبنا أن ننوه بجهود العلماء العرب في الثقافة العربية الإسلامية أنها لم تكن بعيدة عن التفكير السيميائي سواء كان ذلك في الدراسات اللغوية والأدبية والبلاغية (سيبوبه وابن جني والسكاكي..) أو في الدراسات الأصولية (الآمدي وأبوه حامد الغزالي...) أو في الدراسات الفلسفية والمنطقية (الكندي والفارابي وابن سينا والغزالي...) [1] .

لا بد أن نقر بأن القراءة والبحث بهدف الوصول إلى ظاهرة ما من ظواهر الفكر محاولة تفسيرها والتعليق عليها لأمر صعب، كما أنه يحتاج إلى جهد ووقت كبيرين، لذا فقد أجملت الحديثة عن تصور الجاحظ للعلامة دون محاولة التبويب لها فكان السعي الغاية المرجوة الكشف ما في فكر أبي عثمان من تمييز ونضج ونبوغ في ما قدمه من تصورات للعلامة بمختلف أنواعها في هذا الكون الرباني ويمكن أن نجمل الأسس الفكرية التي تصور بها الجاحظ العلامة في النقاط التالية :

- العقل الذي أعلى الجاحظ من شأنه واعتمد عليه في شتى طرق التفكير والتأمل .
- الدين العقدي ومدى ارتباط النص الشرعي بمختلف العلوم والمعارف .
- الاعتماد على منهج علمي نفعي مثل ما رأيناه اعتمد على الشكل الموصل إلى اليقين والهدف منه معرفة الله سبحانه وتعالى .

ثانيا– مفهوم العلامة عند الجاحظ

انطلاقا من النصوص التي استقرأناها من البيان والتبيين من أجل الوصول إلى مفهوم العلامة عند الجاحظ وجدناه قد تعرض لبيان معناها ضمن مواضيع وسياقات مختلفة واستعمالات كثيرة مثل العلامة،السمة ،البرهان ،الآية ،الدليل الأمارة وهذا ما وجدناه مبثوثا من خلال نصوص عدة من بينها قوله :"وكما سمى النحويون ،فذ كروا الحال والظروف وما أشبه ذلك ،لأنهم لو لم يضعوا هذه العلامات لم يستطيعوا تعريف القرويين و أبناء البلديين علم العروض و النحو..."[2] من خلال هذا النص نلاحظ أن الجاحظ كان من بين أحد السابقين إلى اكتشاف العلامة ودورها في حمل الدلالة باعتبارها مشارا بها إلى شيء ما، فلولا هذه العلامة لأصبح هذا الشيء فارغا من المعنى و يقول في نص آخر: "وكذلك أصحاب الحساب قد اجتلبوا أسماء جعلوها علامات للتفاهم "[3] فهو قد تنبه إلى

---

3) ينظر: أحمد يوسف ، الدلالات المفتوحة ،(مقارنة سيميائية في فلسفة العلامة)، الدار العربية للعلوم ، ط 1ن 2005م – 1426هـ،ص 29 .

2)- البيان و التبيين ،ج1 ، ص140.

3)- نفسه .

الخاصية التداولية لأسماء ،فلولا هذه السمات التي وضعت و جعلت خصيصا للتخاطب و التواصل لما كان هناك تفاهم ، فالجاحظ قد تنبه إلى الدور الذي تلعبه العلامة كونها حاملة وظيفة دلالية الهدف منها التمييز بين الأشياء حتى يحصل حسن التفاهم بين الناس عامة ،كما أن هذا النص يثبت ويدل دلالة واضحة على النضج المبكر الذي تميز به الجاحظ لتنبهه لمدى أهمية وجود العلامة في حياة البشر فكيف يمكن للإنسانية أن تتعلم وتتفاهم بدون وجود هذه العلامات التي يرى أن وجودها ضروري ليتعلمها الإنسان و يتواصل بها كما يمكنها أن يعلمها لغيره ؟

كما تناول العلامة بلفظ سمة و يظهر ذلك من خلال النص التالي الذي يقول فيه :"و إنما سمي شوال شوالا لأن النوق شالت بأذنابها فيه ،فإن قال قائل :قد يتفق أن يكون شوال في وقت لا تشول الناقة بذنبها فيه ،فلم بقي هذا الاسم عليه ،و قد ينتقل ماله لزم عنه ؟قيل له :إنما جعل هذا الاسم له سمة حيث اتفق أن شالت النوق بأذنابها فيه فبقى عليه كالسمة ،و كذلك رمضان إنما سمي لرمض الماء فيه و هو في شدة الحر..." [1]، و ها هو في النص آخر استعمل فيه العلامة بلفظ دليل يقول :"و جميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ و غير لفظ خمسة أشياء لا تنقص و لا تزيد أو لها اللفظ ثم الإشارة ثم العقد ثم الخط ثم الحال التي تسمى نصبة و النصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف"[2].

ما يمكن أن يستشف من هذه التعريفات هو تعدد المصطلحات التي أعطاها الجاحظ لمعنى العلامة فقد استطاع أن يعطيها معنى عاما يقترب من الرؤية العامة لعلماء السميائيات الغربيين الذين ينظرون إليها نظرة منطقية شاملة عامة لما احتواه هذا الكون من ظواهر مهما كبرت أو صغرت يقول بيروس :ليس بإمكاني أن أدرس أي شيء في هذا الكون...إلا على أساس أنه نظام سيميائي[3] فالجاحظ عندما يقول:" و البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته و يهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان و من أي جنس كان الدليل..." [4] فهو لا يهمه نوعية و جنس هذا الدليل و لكن ما يهمه الوصول إلى معنى من المعاني من خلال هذه الأدلة فأي شيء أعطى لنا معنى فهو علامة دالة .لأن البيان كما يرى

---

1)- البيان و التبيين،ج1 ،169

2)-نفسه، ج1، ص76.

3)-ينظر: [مقال] السيميوطيقا و العنونة ،عالم الفكر ، ص84.

4)-البيان والتبيين ج 1ص76

الجاحظ علامة جامعة للكشف عن المعنى. ، بالإضافة هذا نجد أن الجاحظ استعمل العلامة في النص السابق بمعنى الدليل.

إن تصور الجاحظ للعلامة لم يكن في سياق معرفي ممنهج و دقيق مثل ما هو حاصل في علم السميائيات الحديثة بل هي مجرد إشارة وتعبيرات بسيطة وملاحات تحتاج إلى إطار نظري شامل ومحدد، إلا أن مفهوم العلامة عنده يتلقى مع مفهوم العلامة عند بيبرس[1] الذي يرى أنها:" شيء ما ينوب لشخص ،على شيء ما من وجهة ما وبصفة ما"[2] هذه الرؤية وما يشمل العالم وما يشتمل عليه من ظواهر كونية لم ينفرد بها بيبرس وحده فهناك رولان بارت فالعالم حسب رأيت هو لغة يعني أنه منظومة إشارية ثانوية[3]

كما أن الجاحظ تناول العلامة بمفهوم الدليل من دل يدل وهو كل مستدل به على معنى فالدليل يكون تال لمعناه في الوجود فهي سلوكيات عملية- الدلائل- أو كلامية يستدل بها على ما حوته النفوس من بواطن الأمور وسرائرها وما جاء عند الجاحظ "...العلم بما غاب مما لا يدركه أحد بعيان مثل سرائر القلوب وما أشبهها فإنما يدرك علمها بآثار أفاعيلها وبالغالب من أمورها على غير إحاطة الله"[4] ويقول في موضع آخر من الحيوان: " قالوا:وكل أنثى من جميع الحيوانات ما خلا المرأة فلا بد لها من هيج زمن معلوم ثم لا يعرف منها وفيها إلا بالدلائل والآثار وببعض المعاينة"[5] ويأتي الدليل هنا تاليا لمعناه ،لأنه كان نتيجة ومعلولا لأن الهيج يترجم في مجموعة من السلوكيات الدالة عليه وهذا في الوجود الفعلي، أما عملية الاستدلال فإن النتيجة تضحى دليلا والسبب يصبح مدلولا.

أما الأمارة هي أثر قائم وقصد للمستدل يهتدي به لمقاصد معينة وأغراض خاصة ونعني بقولنا كل أثر قائم الآثار العينية للنظر في البر والجو ومما يمكن أن يستدل به كما أنها أحيانا تتجاوز الأثر العيني إلى العلامة التواضعية تتخذ اتفاقا خاصا كأن يتفق أشخاص أو شخصين باتخاذ أمارات أو أمارة واحدة لمعنى معين إذا استعملت الجماعة إحداها فهمت المعنى المصطلح عليه، وبالتالي تتصرف وفقه يقول الجاحظ: " وحدثني بعض أصحابنا قال: كنا منقطعين إلى رجل من كبار أهل العسكر

---

1)- بيرس :عالم أمريكي قد سبق التعريف به في بداية الفصل التمهيدي .

2)- سيزا قاسم وناصر حامد أبو زيد،مدخل إلى السيميوطيقا ،ج1،ص،ص138مقال"تصنيف العلامة "لشارل بيرس ،تر: فريال جبور غازولي

3)- ينظر: كريستوف تدوروف [مقال] مفهوم علم الأدب عند رولان بارت ، تر :د/حسين جمعة ، مجلة الموقف الأدبي، مجلة أدبية شهرية يصدرها إتحاد العرب بدمشق ، العدد 248 ،19 أفريل 2000 م .

4)- رسائل الجاحظ ، ج1، ص148.

5)- الحيوان، ج5، ص332

وكان لبثنا يطول عنده،فقال له بعضنا: إذا أردت أن تجعل لنا أمارة إذا ظهرت لنا خففنا عنك و لم نتعبك بالقعود، فقد قال أصحاب معاوية لمعاوية مثل الذي قلنا لك فقال: أمارة ذلك أن أقول إذا شئتم، وقيل ليزيد مثل ذلك فقال : إذا قبلت على بركة الله، قيل لعبد الملك مثل ذلك فقال: إذا ألقيت الخيزرانة من يدي فأي شيء تجعل لنا أصلحك الله؟ قال إذا قلت يا غلام الغذاء"[1].

مهما حاولنا أن نتتبع الاستعمالات المختلفة لمفهوم العلامة عند الجاحظ لن نفيها حقها إلا انه يمكن أن نقول أن للعلامة أنواع كثيرة متفرعة عنها تشترك في كونها حاملة للدلالة من جهة أما من جهة ثانية أن تلك العلامات تنتظم في شكل أنساق متميزة يكتسب كل واحد منها خاصيته حسب أصناف الدلالة التي تتنوع بتنوع العلاقة القائمة بين فعل الإدلاء بالدلالة والفعل المدرك بمضمونها أو بمعنى آخر حسب نوعية العلاقة القائمة بين الحقيقة الحاضرة والحقيقة الغائبة التي تشكل أساس كل علامة[2] .

ثالثا– المواضعة اللغوية عند الجاحظ

إن حاجة الفرد إلى الجاعة حاجة ضرورية ومهمة في حياته ،فلا يمكن لأحد منا أن يعيش منعزلا عن بني جلدته مهما بلغت قوته، وذلك راجع لكونه اجتماعيا،كما أنه قاصر عن توفير جميع حاجياته وخدماته، هذه العلاقة الموجودة بين الفرد والمجتمع ولّدَتْ لنا شيئا مهما فبدونه لا يمكن أن يحدث تواصل بين البشر والجماعات "...هو البيان الذي جعله الله سببا فيما بينهم ومعبرا عن حقائق حاجاتهم ومعرفا لمواضع سد الخلة ورفع الشبهة ومداواة الحيرة"[3] والبيان هنا جاء عاما وهذا راجع إلى الطبيعة الاجتماعية للإنسان التي تتطلب منه الإبانة عن حوائجه وأغراضه التي هي في تزايد دائم وهذا ما عبر عنه الجاحظ وهو يتحدث عن وضع أسماء جديدة بالاصطلاح و الاتفاق لمعاني تتعلق بعلوم ومعارف دعت إليها الحاجة الإنسانية، فهاهو يتكلم عن إسهام المتكلمين والنظّارين في إثراء اللغة بألفاظ جديدة "...وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم فصاروا في ذلك سلفا لكل خلف، وقدوة لكل تابع، ولذلك قالوا العرض والجوهر وأيس وليس وفرقوا بين البطلان والتلاشي وذكروا الهذية والهوية والماهية وأشباه ذلك، وكما وضع الخليل ابن أحمد لأوزان القصيد وقصار الأرجاز ألقابا لم تكن العرب تتعارف تلك الأعاريض بتلك الأوزان وبتلك الأسماء، وكما ذكر

---

1) - البيان والتبيين،ج3، ص42.

2)- ينظر: اللسانيات وأسسها المعرفية، ص19.

3)- الحيوان ، ج1، ص44 .

الطويل والبسيط و المديد والوافر والكامل ... وكما سمى النحويون فذكروا الحال والظروف وما أشبه ذلك لأنهم لو لم يضعوا هذه العلامات لم يستطيعوا تعريف القرويين وأبناء البلديين علم العروض والنحو وكذلك أصحاب الحساب قد اجتلبوا أسماء جعلوها علامات للتفاهم"[1] من خلال النص السابق الذكر نجد أن الجاحظ تطرق إلى العلامات بوجه عام ضمن علوم ومعارف كثيرة إلا أن ذلك لا ينفي بأي حال من الأحوال إقراره المباشر والصريح بالوضع اللغوي للألفاظ بين الناس على أساس اصطلاحي عرفي يقول: " وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسمٌ..." كما قال: "... لو لم يضعوا هذه العلامات ..." بالإضافة إلى إشارته إلى قضية تبدو في غاية الأهمية ألا وهي ظاهرة توليد الألفاظ في اللغة التي عبر عنها بقوله: "...وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء ..." هذه الصيغ الجديدة اصطلح عليها بين أفراد المجتمع العربي.

إن الجاحظ في نصه السابق استعمل ثلاثة ألفاظ كلها تدل على مفهوم الاتفاق على اللغة مرة استعمل مفهوم المصطلح وأخرى العرف ومرة مفهوم الوضع .

كما يمكن أن نطلق على الدلالة في اللغة إما اسم: الدلالة الاصطلاحية أو العرفية أو الوضعية ومن هنا سميت الدلالة الوضعية بالدلالة العرفية[2]، وتعرف الدلالة اللغوية بأنها دلالة وضعية وتعرف الدلالة الوضعية بأنها" الدلالة الاتفاقية المتعارف عليها"[3] نلاحظ أن العلامة ارتبطت بمعنى معين وباتفاق مسبق أو بما يسمى بالمواضعة أو التواضع الذي تم بين الناس .

يؤكد الجاحظ أن اللغة إنما اتسعت معانيها لحاجة الناس للتواصل والتفاهم فيما بينهم فاللغة اصطلاحية، وهاهو يسرد لنا بعض الأقوال المنسوبة إلى الهند التي تتضمن أن اللغة كثرت معانيها واتسعت باتساع حاجة الناس، ولو كانت اللغة إلهاما لما كانت على هذه السعة، إذ أنّ الإنسان يلهم أسماء ما يرى وما يعرف من حاجات وأشياء ومسميات [4] .

هناك نص آخر يؤكد فيه الجاحظ أن اللغة أو الدلالة اللغوية تواضعية، وبالتالي ينفي عن اللغة سمتها التوقيفية وأنها الهام للبشر من الله عز وجل إذ يقول: "فإن قلت: علم الله عز وجل آدم الأسماء كلها- ولا يجوز تعريف الأسماء بغير معان- وقلت: ولولا حاجة الناس إلى المعاني وإلى التعاون والترافد

---

1)- البيان والتبيين ، ج1، ص139-140.

2)- ينظر : اللسانيات وأسسها المعرفية ، ص 52

3)- عادل فخوري ، علم الدلالة عند العرب ، دار العرب ، دار الطليعة للطباعة والنشر – بيروت – لبنان 2004م ،ص 15

4)- ينظر : مازن الوعر، قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، دار طلاس، ط1، 1988م، دمشق ، ص 556

ولما احتاجوا إلى الأسماء على أن المعاني تفضل على الأسماء والحاجات تجوز مقادير السمات وتفوت ذرع العلامات"[1] فلو سلمنا جدلا بأن اللغة إلهام وتوقيف وأخذنا بقوله تعالى أنه علم آدم الأسماء كلها، سلمنا أيضا بأنه علمه المعاني كلها بأنه لا يتعين منطقيا وحسب ما تقضيه اللحمة العضوية بين اللفظ ومسماه[2] أن يعلم الله- عز وجل- آدم الأسماء دون معانيها فهذا غير معقول فالجاحظ أدرك أن المعاني أكثر من الأسماء والحاجات تفوق مقادير العلامات إذ يتعذر علينا الآن نعطي لكل معنى اسما ولكن أن نجد لحاجاتنا ومتطلباتنا أسماء هذا ممكن ولو بشكل مؤقت لأن الحاجات تنشأ بشكل متواصل ومتزايد ناهيك عن كثرة الأشياء واختلافها وهذا يتطلب من أسماء (ألفاظ وعلامات) جديدة.

قد تنبه أبو عثمان إلى حقيقة لسانية جد مهمة وهي وجود مترادفات مختلفة حسب البنية السطحية التي يظن الإنسان أن لها بنية عميقة واحدة لكن الواقع أن هذه المترادفات المختلفة ذات البنية السطحية الواحدة لها بنية عميقة مختلفة وذلك راجع إلى اختلاف مستوياتها الدلالية العميقة[3] يقول في هذا الشأن: "وقد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها ،ألا ترى أنّ الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والمعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حالة القدرة والسلامة وكذلك ذكر المطر لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام و العامة و أكثر الخاصة لا يفصلون بين المطر وبين ذكر الغيث...." [4] فعند استعمال اللغة يظهر ذلك في بناها السطحية حيث نجد هناك فروق واختلافات في الاستعمال المتعلق بالمعنى الذي ذكره الجاحظ وذلك بتفضيل بعض الناس استخدام الجوع الذي يراد- في معناه- السغب رغم أن الجوع لا يكون إلى في موضع الشدة والعقاب وهذا ما استعمله القرآن الكريم ويقول الجاحظ: "من أعون الأسباب على تعلم اللغة فرط الحاجة إلى ذلك على قدر ضرورة إليها بالمعاملة ويكون البلوغ فيها التقصير عنها "[5] من خلال النص يظهر لنا أن الجاحظ يتكلم عن مقتضيات الحياة الاجتماعية، بأنها من أهم الأسباب التي أدت إلى نشوء ألفاظ لم تكن موجودة في اللغة من قبل.

---

1)- الحيوان ج 5، ص 201

2) – ينظر: عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية الإسلامية، الدار العربية للكتب ليبيا، تونس أيار (مايو)،1985،ط 1، ص15)

3) - ينظر: قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، مرجع سابق، ص56.

4)- البيان والتبيين، ج1ن ص20 .

5)- الحيوان، ج5، ص 297 .

وممن ذهب مذهب الجاحظ من اللغويين العرب عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) الذي يقول :" إن الكلمة المفردة في دلالاتها على معناها ليست من إملاء العقل بل هي محض اتفاق فلو أن واضع اللغة كان قد قال (ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد"[1] ومن هؤلاء أيضا ابن خلدون (ت818هـ) الذي يرى أن " اللغة في التعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده وتلك العبارة فعل لساني، ناشئة عن القصد لإفادة الكلام ، فلا بد أن تصير ملكة مقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحهم"[2] إنه يؤكد مرة أخرى أن اللغة من اصطلاح الجماعة اللغوية التي تجمعهم لغة واحدة.

فالكلمة في اللغة هي عبارة عن مجموعة من الأصوات ليس إلا،لكن الذي يضفي عليها معنى هو الاتفاق الحاصل بين أفراد المجتمع الواحد، فكلمات اللغة من قبيل العلامات الاتفاقية في دلالتها على معانيها مثلها في ذلك مثل دلالة الثوب الأسود على الحداد [3] فالفرد البشري في كل اللغات العالمية لا يمكنه إدراك فعل الدلالة مهما أوتي من قوة إلا إذا ألم سلفا بمفاتيح الربط بين ما هو دال ومدلول، وهذا الربط لم يكن بفعل الطبيعة والعقل الخالص بل مرده إلى المواضعات التي تمت بين أفراد مجتمع ما [4] إن عرفية واتفاقية اللغة التي شغلت بال المفكرين ردحا من الزمن قد حسمها "علم اللسانيات" وأقر بأن العلاقة بين طرفي العلامة اللغوية[5] (الدال والمدلول أو اللفظ أو المعنى) علاقة اعتباطية لأن العلاقة بينهما غير معللة كما أنهما يعتبران شيئين مختلفين تماما، وبالتالي أصبحت اللغة عبارة عن مجموعة من الرموز والعلامات كغيرها من الأنظمة الرمزية الأخرى مثل الطقوس[6]، هاهو الجاحظ يقترب من مفهوم الملكة اللغوية (la compétence) عند تشو مسكي[7] ولكن بالنظرة الحديثة فهناك فارق في مستوى الوعي المنهجي لهذه القضية بين الرجلين فعندما يقول:"وإنما تهيأ وأمكن الحاكية لجميع مخارج الأمم لما أعطى الله الإنسان من الاستطاعة والتمكين وحين فضله على

---

1)- دلائل الإعجاز، عبد القاهر عبد الرحمن الجرجاني، تح: د/ محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1995، ص40.

2)- المقدمة، ج2، ص352

3)- ينظر: عاطف مدكور ،علم اللغة بين القديم والحديث،دار الثقافة للنشر والتوزيع،1986،ص 22.

4)- ينظر:اللسانيات وأسسها المعرفية ،ص 54.

5)- إن تفصيل ذلك سيكون في الفصل الثاني أثناء حديثنا على العلامة اللغوية.

6) ينظر:علم اللغة بين القديم والحديث،ص ص 21-22.

7)- أفرام نوام تشو مسكي ولد في 07 ديسمبر 1928 فيلادلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية من أسرة روسية إسرائيلية عالم لساني أمريكي،درس بجامعة بنسلفانيا:الفلسفة والرياضيات،تحصل على شهادة في "علم الفونيمات الصرفي للعبرية الحديثة في عام 1955"،عين أستاذا للسانيات بمعهد ماساتشوست التكنولوجي التي كانت تدرس فيه عدة فروع التي تساعد على النضج الفكري،تتلمذ على يد هاريس الذي يعد قطبا من أقطاب المدرسة الوصفية،خالف أستاذه في هذا المنهج،وتبنى فكرته الجديدة في التحويل،تميز بأفكار سياسية راديكالية،تأثر أيما تأثر بفكر جاكبسون الذي نادى بكليات فونولوجية في جميع اللغات).

جميع الحيوان بالمنطق والعقل والاستطاعة..."[1] فالجاحظ يرى أن الله فضل الإنسان على الحيوان بالمنطق والعقل والاستطاعة وهي إشارة دالة على أن اللغة رعاية منه للإنسان فهذا تشو مسكي يرى أن الطفل مجهز بملكة وقدرة فطرية وبيولوجية تجعله مهيأ لاكتساب اللغة هذه الملكة (**la compétence**) التي تعتبر المعرفة اللاواعية والضمنية بقواعد اللغة التي يكتسبها المتكلم منذ طفولته وتبقى راسخة في ذهنه فتمكنه فيما بعد من إنتاج العدد غير المحدود من الجمل الجديدة التي لم يسمع بها من قبل إنتاجا إبتكاريا لا مجرد تقليد ساكن، ثم التمييز بما هو سليم نحوي وبين ما هو غير نحوي.[2] أما فاسي الفهري يري أن الملكة ما هي إلا نظام أو نسق لتمثلات الذهن للغة فيقول:"الملكة ما هي إلا نسق للتمثل الذهني للغة"[3] ويمكن أن نلخص نظرة الجاحظ وتشو مسكي للغة من خلال ما أورده مازن الوعر:[4]

اللغة عند الجاحظ:

1- الهام ـــــــــــــــــ غزيرة + فطرة +الله

2- وضع ـــــــــــــــــ مجتمع + الحاجة

3- اشتقاق ـــــــــــــــــ مفردات (شكل+مادة)

اللغة عند تشو مسكي:

1- الهام ـــــــــــــــــ غزيرة+ فطرة ـــــــــــــــــ طبيعة

2- برمجة ـــــــــــــــــ ملكة إنسانية ـــــــــــــــــ استعداد بيولوجي

3- بنية تنظيمية (وضع)ـــــــــــــــــ مجتمع ـــــــــــــــــ الحاجة

4- توليد وتحويل ـــــــــــــــــ (صوت+شكل+دلالة) ـــــــــــــــــ الحاجة

إن ما سبق الحديث عنه يدخل في إطار بما يسمى في السيميائيات الحديثة بمبدأ المواضعة المفتوحة وهو اتفاق يتم في محيط المجتمع الواحد حيث يشترك فيها جميع أفراد الأسرة اللغوية الواحدة المنتمية إلى رقعة جغرافية محددة فيتم الاصطلاح والاتفاق على وضع أسماء لمسميات، وبالتالي تصبح هذه الأشياء معروفة بها كما على حد تعبير صاحب البيان والتبيين:"وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني، وهم

---

1)- البيان والتبيين، ج1، ص70.

2)- ينظر: rolond eluerdm, alporder la linguistique, édition ESF, 5eme édition,tome1,pp105-108

نقلا عن شفيقة العلوي،محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة،أبحاث للترجمة و النشر و التوزيع،بيروت-لبنان،ط1،2004،ص44

3)-عبد القادر فاسي الفهري،اللسانيات واللغة العربية، منشورات عويدات بيروت-باريس، 1968م،ص 10.

4)- ينظر:قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث،مرجع سابق ،ص558

اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم..."[1]

رابعا – أنواع العلامة عند الجاحظ

1-دلالة اللفظ

جاء في لسان العرب لفظ (اللفظ)أن ترمي بشيء كان في فيك .... و ذلك الشيء لفاضة قال امرؤ القيس يصف حمارا :

يُوَارِدُ مجهُولاتِ كُلِ خَمِيلَةٍ ———— يَمُجُ لُفَاظَ البَقلِ في كُلِ مَشرَبٍ

و الدنيا لافظة تلفظ بمن فيها إلى أخرى أي ترمي بهم ،و الأرض تلفظ الميت إذ لم تقبله و رمت به...و البحر يلفظ الشيء يرمي به إلى الساحل و البحر يلفظ بما جوفه إلى الشطوط[2] و في الحديث النبوي الشريف: " ويبقى في كل أرض شرار أهلها تلفظهم أي تقذفهم وترميهم "[3] وفي الكتاب الحكيم: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[4] ولفضت بالكلام وتلفظت به: أي تكلمت به واللفظ، واحد الألفاظ وهو في الأصل مصدر .

وردت دلالة اللفظ في تصنيف الجاحظ للدلالات أو في نظرية البيان على المفرد أو المركب[5] دون الفصل بينهما جاء كلامه عليهما عاما و أكثر تجريدا، و هذا لم يخص بدلالة اللفظ فحسب بل بأصناف الدلالات عموما،كما أن الجاحظ كان من المهتمين بدلالة اللفظ ، فهو يرى أن الإنسان حديث فإذا فقد هذه الخاصية كان ناقصا ،قال بعض الحكماء لابنه :" يا بني، إنما الإنسان حديث فإذا استطعت أن تكونه حديثا حسنا فافعل "[6] بالإضافة إلى أن صاحب البيان والتبيين أدرك أن الصوت آلة اللفظ فلولا الصوت لما ظهر اللفظ ولما سمعناه كما اهتدى إلى فكرة التقطيع ووظيفة الصوت في تحديد الوحدات الدالة وهو تصور يقترب من أندري مارتيني لوظيفة الصوت في عملية

---

1)- البيان والتبيين،ج1،ص139.

2)- ينظر :محمد بن مكرم،لسان العرب،دار صادر ،بيروت،ط3 ،1994،ج7 ،ص461 مادة لفظ.

3)- سنن أبي داود سليمان بن الأشعث،أبو داود السجستاني الأزدي، محمد محي الدين عبد الحميد،دار الفكر ،ط دث ،ج3،ص4

4)-سورة ق/18

5)-المفرد :هو اللفظ الذي يدل على معنى ولا يدل جزء منه على شيء أصلا هو جزؤوه ،أما المركب : هو الذي يوجد لمسموعه أجزاء دالة على أجزاء المعنى المراد بالجملة والأجزاء نفسها دالة على معنى،وهي أجزاء معنى الجملة (للاستزادة ينظر:د/عمار طالبي اصطلاحات الفلاسفة ،المؤسسة الوطنية للكتابة ،الجزائر،د ط 1983،ص ص 80-81)

6)- الجاحظ ،أبو عثمان ،رسائل الجاحظ ،تح:محمد عبد السلام هارون،م1،دار الجيل بيروت،ط1991،1.ص 160.

التقطيع والتأليف يقول الجاحظ :"الصوت هو لآلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع ،وبه يوجد التأليف ،ولن تكون حركات اللسان لفظا وكلاما موزونا ولا منثورا إلا بظهور الصوت و لا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع و التأليف".[1]

إن اللغات في العالم لها نفس الخصوصية والميزة كونها محدودة الحروف ومجموعها يؤلف لنا مجموعة منتهية من الألفاظ أو أسماء المعاني[2] كما يسميها الجاحظ أما المعاني فهي متعدد إلى غير نهاية وهذا ما نجده في قول الجاحظ :"حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية وممتدة إلى غير نهاية وأسماء المعاني مقصورة معدودة ومحصلة محدودة"[3] لذلك كانت اللغة عاجزة عن توفير اسم لكل معنى وعليه كان الاستعمال المجازي للألفاظ أمرا ضروريا.

لقد أدرك الجاحظ بفضل عقله النير أن أداة التعبير عن الضمير هي اللسان إذ يشبهه في وظيفته بالترجمان الذي يحول المعاني وينقلها من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ولذلك كان "اللسان أداة يظهر بها حسن البيان وظاهر يخبر عن الضمير وشاهد ينبئك عن غائب ..."[4] وبالمقابل يشبه القلب بالخزانة التي تحفظ الأسرار وتصونها وتختزن ما يعيه المرء بالحواس من خير أو شر وما تولده الأهواء والشهوات وما تنتجه العلوم والمعارف[5] إن الإنسان منح عقلا واستطاعة وحسن تصرف يستطيع بها إدراك القوانين التي تربط الألفاظ(الأسماء)والمعاني ،كما يستطيع تأليف مالا ينتهي من الجمل يقول الجاحظ :"والإنسان ذو العقل والاستطاعة والتصرف والروية ،إذ علم علما غامضا أدرك معنى خفيا لم يكد يمتنع عليه إذا قاس بعض على بعض..."[6] فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يبين "لما أعطا الله الإنسان من الاستطاعة[7]والتمكين ،وحين فضله على جمع الحيوان بالمنطق والعقل.والاستطاعة.فبطول استعمال التكلف ذلت جوارحه بذلك ومتى ترك شمائله على حالها ولسانه على سجيته ،كان مقصورا بعادته المنشأ على الشكل الذي لم يزل فيه.[8]

---

1)- ينظر أندري مارتيني ،مبادئ في اللسانيات العامة ،تر :د/سعدي الزبير ،دار الأفاق، ص ص 18،19

2)- البيان والتبيين، ج1،ص76

3) نفسه ،ص76

4) نفسه ،ج2،ص75

5)- ينظر:المناحي الفلسفية عند الجاحظ،مرجع سابق،ص101

6)- الحيوان،م2، ج7،ص559

7)-إن مفهوم الاستطاعة عند الجاحظ يقترب من مفهوم الكفاءة- la competence- كما يسميها ابن خلدون بالملكة وقد كانت هذه الظاهرة سببا في نشوء النظرية التحويلية عند تشو مسكي .

8) البيان والتبيين، ج1،ص70

مَيتٌ ماتَ وَ هو في وَرَقِ العَيش مُـــقـــيمٌ به و ظلٍ ظليلِ[1]

من بين السمات التي دعا إليها الجاحظ هي العلاقة الرابطة بين اللفظ والمعنى (الدال والمدلول) فلا بد أن يكون هناك تناسب و تناسق بينهما ،حيث يكون اختيار اللفظ مصيبا للمعنى و على قدره و ربما تعوذ بعض الربانيين من الإسهاب و كل ما جاوز القدر، كما يتعوذون من كل ما يبعدهم عن رسول الله صلى الله عليه و سلم،فقد روي عن ابن عمر رضي الله عنهما،فقال أن أناسا سألوا ابـــن عمر الدعاء لهم،فقال:"اللهم ارحمنا و عافنا و ارزقنا فقال له رجل:لو زدتنا يا أبـــا عبـــد الـــرحمن فقال:نعوذ بالله من الإسهاب"[2]لقد توصل الجاحظ بفضل عقله المتميز إلى ما يميز الإنسان عن غـــيره بما خصه الله من استطاعة و حسن البيان حتى غدا الإنسان مرتبطا ارتباطا كليا بالمنطق و الإبانة كما وجدنا أن العملية التلفظية تقوم بها وسيلتان :لسان يلفظ و قلب يعي و يـــدرك و لأجـــل ذلـــك قال:"اللسان أداة يظهر بها حسن البيان ،و ظاهر يخبر عن ضمير ،و شاهد ينبئك عن غائب..."[3]

– دلالة الإشارة

بعد أن تحدث الجاحظ عن دلالة الفظ انتقل إلى دلالة الإشارة وبين فضلها وفائدتها وما تميزت به عن اللفظ من خصائص بل وجدها أحيانا تتجاوز فضل اللفظ فحديث الجاحظ عن دلالة الإشارة لم يكن بمعزل عن الرد عن الشعوبية طبعا .

إن دلالة الإشارة لها علاقة وطيدة باستعمال العصا خصوصا إذا تعلق الأمر بالخطابة، فتصـــبح لها (العصا)مآرب جمة والإشارة بها إحدى هذه الفوائد التي نجنيها،لأجل ذلك حاول أبو عثمـــان أن يرد على ادعاءات الشعوبية التي تدل دلالة قاطعة على الكراهية وحقد للعرب ولعقيدتهم الســـمحاء فجاء البيان والتبيين خصيصا لهذه المسالة وهذا لإثبات أن البيان والإشارة بالعصـــا وغيرهـــا مـــن اختصاص العرب وتفوقهم على كثير من الأمور في ذلك .

إن تمسك الجاحظ بدلالة الإشارة لم يكن بمجرد التعنت بل لما رآه ما تحمله مـــن فوائـــد كمـــا أن للإشارة وسائل كثيرة وعلى رأسها العصا التي ذكر الله – عز وجل- مآربها وهي خـــير رد علـــى مزاعم ومكائد الشعوبية قال الله تعالى:﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَـــا

---

1)-البيان و التبيين،ج1،ص 65.

2)-نفسه،ص،97.

3)- نفسه،ج2،ص 75.

وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾1 فيقول الله سبحانه وتعالى على لسان سيدنا موسى عليه السلام"لي فيها مآرب أخرى"يجعلنا أن نتصور جملة من الفوائد للعصا كالإشارة بها عند الخطبة أو في غيرها فهي تزيد الكلام بيانا ووضوحا ،و لابد أن نذكر بأن الجزء الثالث من كتاب لبيان والتبيين محاولة لصاحبه أن يبين فضل العصا وفوائدها رادا في نفس الوقت على أقوال الشعوبية وادعاءاتهم.

كما تنبه الجاحظ إلى أمر يحتاج إلى الذكر والتنويه به وهو مدى أهمية دلالة الإشارة إذ جعلها مباشرة بعد دلالة اللفظ وهذا نظرا للمكانة الكبرى التي تحتلها في البيان العربي إذ توصل إلى أن" الإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له ،ونعم الترجمان هي عنه .وما أكثر ما تنوب عن اللفظ وما تغني عن الخط"[2] فالإشارة تعتبر ترجمان للفظ و معين له كما أنها تزيد قوة في البيان ووضوحا في الدلالة ،وبالتالي تعوضه النقص الذي يعاني منه فلولا الإشارة لبقيت الألفاظ عاجزة عن الوصول إلى بعض المعاني ،فهي عون مهم في اللفظ في توضيح مقاطع الكلام وأقسامه مثلما قال الجاحظ:"والمغني قد يوقع بالقضيب على أوزان الأغاني ،و المتكلم قد يشير برأسه ويده على أقسام كلامه وتقطيعه.ففرقوا ضروب الحركات على ضروب الألفاظ و ضروب المعاني "[3]

وهاهو أبو عثمان الجاحظ يعدد لنا بعض وسائل الإشارة فوجدها أنها تكون" باليد وبالرأس وبالعين والحاجب والمنكب إذا تباعد الشخصان وبالثوب وبالسيف .وقد يتهدد رافع السيف والسوط فيكون ذلك جازرا ومانعا رادعا ويكون وعيدا وتحذيرا "[4]فهذه الوسائل التي ذكرها الجاحظ تجعل اللفظ يرتقي من مرتبة البيان إلى التبيين أو حسن البيان فالمتحدث لا يستطيع الاستغناء عن الإشارة ويكتفي باللفظ فهذا عبد الملك يقول بشأن ذلك :"لو ألقيت الخيزرانة من يدي لذهب شطر كلامي"[5] كذلك المغني "لو قبضت يده ومنعت رأسه عن الحركة لذهب ثلثا كلامه "[6] وهاهو ثمامة بن الأشرس[7] الذي كان من المتحدثين عن مكانة الإشارة من اللفظ إذ يرى أن المتكلم قد

---

1)- طه /17-18.

2)- البيان والتبيين ج1 ،ص78

3)- نفسه،ج3،ص119

4)-نفسه ،ج1،ص77.

5)- نفسه ،ج3ص119.

6)-نفسه ،ج3ص119.

7)-ثمامة بن أشرس مولى بني نمير ،كان زعيم القدرية في زمان المأمون والمعتصم والواثق:وهو الذي دعا المأمون إلى الاعتزال وتروى عنه قصص تشير إلى استخفافه بالدين،لذلك فإنه رأى الناس يوم جمعة يتعاودون إلى المسجد الجامع لخوفهم من فوت الصلاة ،فقال لرفيق له :انظر إلى هؤلاء الحمير

يستغني عن الإعادة ،وقد لا يحتبس ،ولا يتوقف ولا يتلجلج ،ولا يترقب لفظا قد استدعاه من بعد ولا يلتمس التخلص إلى معنى قد صعب عليه طلبه غير أنه لا يستغني مطلقا عن الإشارة يقول :"كان جعفر بن يحيى أنطق الناس،قد جمع الهدوء والتمهل ،والجزالة والحلاوة وإفهاما يغنيه عن الإعادة.ولو كان في الأرض ناطق يستغني بمنطقه عن الإشارة،لا يستغنى جعفر عن الإشارة ،كما استغنى عن الإعادة"[1]

وتجدر الإشارة إلى أن الجاحظ تنبه إلى مسألة تبدو في غاية الأهمية باعتبار الإشارة أصلح وأنجع للتعبير عن خاص الخاص أو بما يسمى خاصة الخاصة فهي لغة يفهمها عامة الناس لارتباطها بوضع خاص بين المتكلم والسامع أو بما يسمى بالمرسل والمرسل إليه كما أن دلالتها تكون دفعة واحدة لكفاءة متميزة كونها لا تتسم فهي في أغلب الحالات عكس اللغة اللفظية التي تمتاز بالخطية الزمنية فالمتكلم لا يستطيع التلفظ بكلمة ما في نفس الزمن فهي تتم بين مجموعة معينة من الناس يصطلحون على ألفاظ لمعاني خاصة بهم وليست متداولة عند غيرهم من الناس.

يقول الجاحظ:"و بعد فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة ،وحلية موصوفة ،على اختلافها في طبقاتها ودلالاتها .وفي الإشارة بالطرف والحاجب ، وغير ذلك من الجوارح ،مرفق كبير ومعونة حاضرة،في أمور يسترها بعض الناس من بعض ،ويخفونها من الجليس وغير الجليس .ولولا الإشارة لم يتفهم معنى خاص الخاص ،ولجهلوا هذا الباب البتة.ولولا أن تفسير هذه الكلمة يدخل في باب صناعة الكلام لفسرتها لكم "[2]

في النص السابق نجد الجاحظ تكلم عن الإشارة بالعين وهي أحد الجوارح التي يستعملها الإنسان في الإشارة إلى ما يريد فالعين قد تحمل من عبارات ومعاني الترحيب ما يعجز عنه اللسان أو بيان اللغة أو حركة صغيرة من عين تغني عن الكثير من اللفظ يقول الشاعر:

أشارت بطرف العين خيفة أهلها – إشارة مذعور و لم تتكلّم
فأيقنت أن الطّرف قد قال مرحبا ـــ وأهلا وسهلا بالحبيب المتيّم

وقال آخر:

والبقر! ثم قال صنع ذلك العربي للناس قتل ثمامة في زمان الواثق الذي تولى الخلافة من (227-232)هـ وقيل مات في 213هـ(ينظر:من على هامش البيان والتبيين،ج1 ،ص105)

1)-البيان و التبيين ،ج1،ص ص105-106.

2)-نفسه،ج1،ص78.

وللقلب على القلب دليل حين يلقاه
وفي النّاس من النّاس مقاييس وأشباه
وفي العين غنى للمرء أن تنطق أفـــواه

وقال آخر:

وعين الفتى تبدي الذي في ضميره وتعرف بالنّجوى الحديث المغمَّسا[1]

وقال آخر:

العين تبدي الذي في نفس صاحبها من المحبة أو بغضا إذا كانـــــا
والعـــين تنطـــق والأفواه صامتة حتى ترى من ضمير القلب تبيانا[2]

من خلال الأبيات الشعرية يبدو أن العين بإشارتها اللطيفة تدل على ما يضمره قلب المرء مـــن المحبة أو البغض والخبث.

وهناك ما يقوم مقام الجوارح يقول الجاحظ :"فأما الإشارة باليد وبالرأس و بالعين ...وبالثوب وبالسيف وقد يتهدد رافع السيف والسوط فيكون ذلك جازرا ومانعا رادعا ويكون وعيدا وتحذيرا"[3] فهذه الوسائل التي ذكرها الجاحظ من الثوب والسيف والسوط تكون نائبة عن الجوارح التي تكـــون بها الإشارة للتعبير عن دلالة المعاني، وقد يحمل الخطيب العصا والقنا والقسي أثناء الكلام خاصـــة إذا تعلق الأمر
بالخطابة، كما أشار أبو عثمان إلى أن الإشارة قد تكون باللفظ ويظهر ذلك واضحا في قـــول أبـــو داوود ابن جرير الأيادي :

يرمون بالخطب الطِّوال وتارة وحي الملاحظ خيفة الرَّقباء [4]

وفي موضع آخر من البيان والتبيين يرى الجاحظ أن رب كلمة تغنى عن الخطبة و تنوب عن رسالة بل رب الكناية تربي على إفصاح ولحظ يدل على ضمير وإن كان ذلك الضمير يعيد الغاية إلى النهاية[5]

ومن الإشارة باللفظ في قوله تعالى :﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[6]

---

1)- المغمس: الغامض المظلم.
2)-البيان والتبيين، ج1،ص78،79
3)- نفسه ، ج 1 ،ص77
4)- نفسه ،ج1، ص44
5)- ينظر :نفسه ،ج2ص7 .
6) الزخرف/ 71

ومن الإشارة باللفظ أيضا قوله تعالى :﴿... فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾[1].

فالبلاغة العربية استطاعت أن تدرك الفرق الجوهري بين اللفظ العادي الحامل دلالة معجمية وبين إشارة لفظية تدل على معاني كثيرة وبالتالي يكون اللفظ قليلا والمعنى كثيرا .

كما أن للإشارة ميزة أخرى تتميز بها ،كونها قادرة على إيصال الرسالة التي يصعب فيها استعمال الصوت كصخب المعارك أو ظروف جوية معينة أو بعد مسافة يقول أبو عثمان :"ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت هذا باب تتقدم فيه الإشارة الصوت والصوت هو آلة اللفظ "[2]في فحوا حديث الجاحظ السابق نجده يعطي كل الأفضلية للإشارة دون تردد أو تخوف و هذا واضح من خلال قوله "فهذا باب تتقدم فيه الإشارة الصوت" ، وكأني به يعدد محاسن الإشارة وهي فعلا كذلك تعتبر وسيلة مهمة لحمل المعاني و التعابير في وقت قصير ولمسافات بعيدة خاصة إذا كانت الظروف لا تسمح بذلك مع اللفظ ، غير أن سيادة الإشارة كإحدى وسائل البيان في الفكر العربي لم يمنع المستخدم لها من ضرورة مراعاة الأحوال والمقامات فاستخدمها يتطلب منا أن نراعي أقدار السامعين [3]قال ابن سنان :" أن التذييل يصلح للمواقف الجامعة وبحيث يكون الكلام مخاطبا به عامة الناس ... والإشارة تصلح لمخاطبة الخلفاء والملوك " [4] فما جاء به الجاحظ يكاد يتفق مع الدراسات الحديثة يقول ستيفن أولمان " وتنشأ مع احتكاك بعض الأشخاص الذين يملكون أعضاء الحواس ويستعملون في علاقاتهم الوسائل التي وضعتها الطبيعة تحت تصرفاتها الإشارة إذا أعوزتهم الكلمة والنضرة إذ لم تكف الإشارة " [5]

إن علامة الإشارة هي مفهوم يختلف كل الاختلاف عن العلامة اللغوية كونها تحدث في إطار ضيق وتتم في ظروف خاصة بين مجموعة معينة من الأفراد يتفقون على إشارات وإيماءات وفي بعض الحالات ألفاظ خاصة بهم تنم عن معاني خاصة بهم أو بما يسمى بإشارة اللفظ.

---

1) النجم /10

2) البيان و التبيين،ج1،ص58

3)- ينظر :مصطف السعداني ،استاطيقا الاشارة دراسة بلاغية سيميوطيقية ، توزيع منشأة المعارف بالاسكندرية، 1994، ص ص28 29

4)- ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية ،ط 2 ،1982،بيروت، ص199

5)- ستيفن أولمان دور الكلمة في اللغة ،تر:د/ كمال بشر دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ط12

3- دلالة العقد

العقد هو القسم الثالث من أقسام الدلالات على المعاني يأتي ترتيبه بعد الإشارة ومفهومه يرتبط ارتباطا وثيقا بالعقيدة الإسلامية السمحاء التي تدعو الإنسان إلى التأمل في هذا الكون العجيب الذي صنعه الله عز وجل وفق نظام دقيق وعجيب يقوم على نواميس وقوانين تدل دلالة قاطعة على حسن صنعته وعظمته وقوته ،هذه القوانين التي يسير على إثرها هذا الكون .بمختلف ومستوياته ومكوناته من أبسط الأشياء إلى أعقدها و من أصغرها إلى أكبرها، كما أعطى الله الإنسان العقل هذه القوة التي توصل البشر إلى إدراكه حقائق هذا النظام الرباني قال تعالى :﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الأَلْبَابِ﴾[1] وقال تعالى :﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[2]،فكلما حاول الإنسان فهم نظام هذا الكون استطاع بذلك اكتشاف أسراره وقوانينه التي يخضع لها وإدراك دقة الحساب الذي يقوم عليه فعناصره لا تسير ولا تتحرك إلا وفق نواميس في غاية الدقة لا تتغير إلا بإرادة الخالق الحي القيوم القادر على كل شيء فله المشيئة في ما أراد ، وعليه كلما عرف الإنسان حقائق الأشياء والقوانين التي تسيرها زاد تفكرا وتفكيرا في النظام الكوني، هذا باعتبار العقد وسيلة من وسائل البيان قال تعالى :﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[3] يقول الجاحظ : " وأما القول في العقد وهو الحساب دون اللفظ والخط ، فالدليل على فضيلته وعظم قدر الانتفاع به"[4] قول الله عزّ وجل﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[5] وقال جلّ و تقدس: ﴿الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان الشمس والقمر بحسبان﴾[6]وقال جل وعز :﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ

---

1)- آل عمران /190

2)- يس/38-39-40

3)- الرحمن/ 3-4-5

4)- البيان والتبيين ،ج1،ص80 .

5)- الأنعام /.96

6)- الرحمان /1-2-3-4-5.

اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾[1]وقال :﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾[2]

إن المتأمل في الآيات التي استعملها الجاحظ كحجة ودليل على مدى أهمية العقد والحساب في النظام الكوني وحياة البشر فالله سبحانه وتعالى لفظ الحساب في صور متفرقة من القرآن الكريم وهذا يدل على ارتباط العقد بالعقيدة الإسلامية نظرا لما يحمله من الأهمية كونه يشتمل على منافع جمة يقول أبو عثمان :" والحساب يشتمل على معان كثيرة ومنافع جليلة ،ولولا معرفة العباد بمعنى الحساب في الدنيا لما فهموا عن الله عز وجل ذكره معنى الحساب في الآخرة "[3] فلو لا الحساب فكيف تقع المحاسبة بين يدي الله عز وجل ؟

فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه العقد ثم يقارن بين حساب البشر وبين الحساب الإلهي عند الميزان يقول النبي صلى الله عليه وسلم :" خلتان لا يحصيهما رجل مسلم إلا دخل الجنة ألا وهما يسير ومن يعمل بهما قليل يسبح الله في دبر كل صلاة عشرا ويحمده عشرا ويكبره عشرا" قال فأنا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يعقدها بيده قال :" فتلك خمسون ومائة باللسان وألف وخمس مائة في الميزان وإذا أخذت مضجعك تسبحه و تكبره وتحمده مائة فتلك مائة باللسان وألف في ميزان فأيكم يعمل في اليوم والليل ألفين وخمس مائة سيئة قالوا فكيف لا يحصيهما قال يأتي يحدكم الشيطان وهو في صلاته فيقول ادكر كدا حتى ينفتل فلعله لا يفعل ويأتيه وهو في مضجعه فلا يزال ينومه حتى ينام"[4] ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:" عليكم بالتسبيح بالتسبيح والتهليل والتقديس وأعقدنا بالأنامل فإنهن مسؤولات مستنطقات ولا تغفلن فتنسين الرحمة "[5] فالعقد عند الجاحظ هو الحساب والعد بالأصابع في أبسط الاحوال[6]

و من بين أهم الوسائل التي يعتمدها الإنسان في دلالة العقد العقل ،لأن العد و الحساب مستوى من مستويات التجريد فدلالته تختلف عن دلالة اللفظ والإشارة ومادام العد شيئا مجردا لاعتماده على العقل فهو لا يختلف عنه ولذلك أباح لنفسه (الجاحظ) تعمد الالتباس باختيار مفهوم

---

1)- يونس/ 5.

2)- الإسراء /12

3)- البيان والتبيين، ج1،ص80

4)- سنن الترمذي، ج5، ص47

5)- نفسه ،ج 5،ص 521

6)- ينظر محمد الصغير بناني، المدارس لسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة ، دار الحكمة،سنة 2001 ،ص19

العقد [1] وما يؤكد هذا قوله ... ((لون أن أقبح الناس وجها ... قال لامرأة قد تمكن من كلامها ومكنته من سمعها والله يامولاتي وسيدتي ، لقد سهرت ليالي ، وأرقت عيني وشغلتني عن مهم أمري ، فما أعقل أهلا ولا مالا ولا ولدا لنقض طباعها ولفسخ عقدها[2]

إن المتتبع لمفهوم العقد لنصوص الجاحظ الأخرى يكتشف أن العقد هو دلالة رياضية ا تعتمد على العقل والمنطق لاستنباط المعنى الذي يبحث عنه كل من المتكلم و السامع ، والعقد دلالة نظرية بحتة منشأها العقل وصورتها المنطق وغايتها الإقناع المطلق[3].

إن إدراك قواعد الحساب بات أمرا ضروريا لفهم أسرار هذا الكون والكشف عن القوانين التي تسيره لاكتشاف التناسب العظيم الموجود بين أجزائه ، فلولا الحساب ما توصل الإنسان إلى فهم احتجاب الشمس في أوقات الكسوف ، بالإضافة إلى بعض المواعد الكونية قبل حصولها " لأن التناسب بين الأشياء هو سبب الحصول على المجهول من المعلوم الحاصل للنفس و طريق حصوله". [4]

لقد كان للحساب مكانة خاصة في تقسيم وترتيب مقالات المتكلمين في فهم رآهم التي تأسست عليه فهذا الشهرستاني صاحب الملل والنحل في المقدمة الخامسة من كتابه يقول : " لما كان الحساب مبني على الحصر والاختصار و كان غرضي من تأليف هذا الكتاب حصر المذاهب مع الاختصار اخترت طريق الاستيفاء ترتيبا ، وقدرت أغراضي على مناهجه تقسيما وتبويبا ، وأردت أن أبين كيفية طرق هذا العلم كمية أقسامه لئلا يظن بي أني من حيث أنا فقيه و متكلم أجنبي أنظر في مسالكه ومراسمه أعجمي القلم بمداركه ومعالمه فآثرت من طرق الحساب وأحسنها وأقمت عليه من حجج البرهان أوضحها وأمتنها وقدرتها على علم العدد".[5]

أعود مرة أخرى لأقول إن هم الجاحظ الوحيد هو الكشف عن أي معنى من المعاني لأن اكتشافه دلالة العقد هو مستوى تتساوى فيه كل الدلالات وتصبح جميعها عبارة عن قضايا متشابهة ليتعامل معها العقل الإنساني بالطريقة نفسها وهذا المستوى من التجريد قد توصل إليه أيضا علماء الدلالة حديثا وكذلك المناطقة .

---

1)- ينظر : نفسه ،ص 19.

2)- ينظر : الحيوان ،م1، ج1،ص 96

3)- ينظر : المدارس اللسانية في التراث العربي ،ص 19

4)- عبد الرحمن ابن محمد بن خلدون الحضرمي ، مقدمة ابن خلدون ، دار القلم ، بيروت ، ط5، 1985، ج1، ص 181.

5)- الشهر ستاني محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد ، الملل والنحل ، تح : محمد سيد كلاني ، دار المعرفة ، بيروت 1404هـ، ج 2،ص 33

إن مفهوم العقد أو الحساب يشمل الكثير من العمليات العقلية والذهنية، وقد قلنا سابقا أن البيان كل ما يكشف معنى من المعاني يقول الجاحظ ،" والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب ... فبأي شيء بلغت الإفهام و أوضحت عن المعنى،فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[1] فدلالة العقد جعلت أبا عثمان ينصرف كلية إلى الاهتمام بالمعنى وذلك حينما ارتقى بتفكيره من المستوى المادي المحسوس إلى المستوى التجريدي ، وهو مستوى يتساوى فيه الدلالات إذ لا فرق بين دلالة اللفظ أو دلالة الخط أو دلالة الإشارة أو بين دلالة الطاووس والذبابة أو النار والماء كما لا يهم الدال بقدر ما يهم بالكشف عن معنى من المعاني وفي ذلك يقول الجاحظ :" وليس بين الرسوم التي تكون في الحافر كله والخف والظلف كله وبين الرقوم فرق ، ولا بين العقود و الرقوم فرق ، ولا بين الرقوم و الخطوط و كلها فرق وكلها خطوط وكلها كتاب أو معنى الخط والكتاب ،ولا بين الحروف المجموعة المصورة من الصوت المقطع في الهواء ومن الحروف المجموعة من السواد في القرطاس فرق واللسان يضع جوية[2] الفم و في خارجه وفي لهاته وباطن أسانه مثلما يضع القلم في المداد .والليقة والهواء والقرطاس ، وكلها صور وعلامات وخلق مواثل و دلالات "[3] في نص أبي عثمان السابق نلاحظ أن كل أصناف الدلالات وجميع فروعها ما هي إلا خلق مواثل ودلالات فهو يرى مهما كانت نوعية الدلالة إلا وكانت لمعنى من المعاني.

4-دلالة الخط

الخط هو القسم الرابع من أقسام العلامة في نظرية الجاحظ ،و هو قسم جد مهم نحتاج إليه في ظروف قد يتعذر علينا استعمال اللفظ أو الإشارة لبعد المسافة أو عدم حضور من نريد الاتصال به (الغيبة)، وبالتالي توصل الإنسان إلى اكتشاف الخط لما فيه من تحد ومواجهة للغيبة بالإضافة إلى القدرة الخارقة على اجتياز الأزمان والأماكن فالخط يعتبر ذاكرة للأجيال ، فهو ينقل ما خلفه الماضون من موروث ثقافي ومعرفي للأجيال،فلولاه ما عرفنا عن ماضينا التليد شيئا فالخط دليل مادي يمتد في المكان فلا يعرف حدودا كما أنه يمتد في الزمان . فما قلناه يؤكده لنا أبو عثمان في كلام موجز من البيان والتبيين " قالوا القلم أحد اللسانين كما قالوا : قلة العيال أحد اليسارين . وقالوا : القلم أبقى أثرا واللسان أكثر هذرا وقال عبد الرحمن ابن كيسان : استعمال القلم أجدر أن يحض

---

1)-البيان والتبيين ، ص 76 .

2)- فتحة وفرجة الفم .

3)- الحيوان،ج1، ص ص48-49

الذهن على تصحيح الكتاب ، من استعمال اللسان على تصحيح الكلام . وقالوا : اللسان مقصور على القريب الحاضر و القلم مطلق في الشاهد والغائب وهو للغابر الحائن[1] ،مثله للقائم الراهن والكتاب يقرأ بكل مكان ، ويدرس في كل زمان ، واللسان لا يعدو سامعه ولا يتجاوزه إلى غيره "

كما أن القرآن الكريم أعطى للخط مرتبته وقيمته اللائقة به قال تعالى :﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[2] هذه الآيات هي أول ما نزل من القرآن الكريم وفيها أمر رباني يأمر بالقراءة والتعلم فبالقلم يتعلم الإنسان و به يستطيع أن يقيد ما شاء من المعارف والعلوم قال عزّ وجلّ ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[3] فالمولى تبارك وتعالى يقسم بالقلم و بما يخط بالقلم (الخط) وإلى جانب ما جاء في القرآن الكريم من تنويه لقيمة القلم ونجد مثله في أحاديث النبي صلى وسلم ومن حديث أنس ابن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :" قيدوا العلم بالكتابة "[4] فلولا القلم لما استطاع الإنسان نقل خبراته إلى من يأتي بعده من أجيال ، لقد رأى أبو عثمان أن دلالة الخط على المعنى كدلالة اللفظ على المعنى تماما رغم الخصائص التي تميز الخط عن اللفظ و أن دلالة الخط لا تحتاج إلى وساطة اللفظ على المعنى فهو يرى أن كل رسم يدل على معنى من المعاني وهذا ما أدركته العقلية العربية الفطنة فقالوا :".. القلم أحد اللسانين ".[5]

قد أدرك الجاحظ أن المعاني موجودات في الصدور ويعبر عنها بالخط كما يمكن التعبير عنها باللفظ ويعجب الإنسان بها مكتوبة تستلذها الأعين كما يعجب بها مسموعة ترددها الألسن يقول الجاحظ :"...و دلت الأقلام على مدافن الألفاظ و أشارت إلى حسان المعاني و رأيت البصر في هذا الجوهر من الكلام في رواة الكتاب أعم ،و على ألسنة حذاق الشعراء أظهر"[6] إلا أننا نجد في المقابل أن هناك من الفلاسفة المتقدمين من يحط من شأن الكتابة (الخط) ويرى بأن ليس لها دور ضروري، فهي بنظرهم دليل على الألفاظ و ليست دليلا على المعاني و إن دلت بلا توسط الألفاظ يقول :" قد كان يمكن أن تكون لها دلالة على الآثار بلا توسط الألفاظ حتى يجعل لكل أثر في النفس كتابة معينة مثلا للحركة كتابة و للسكون أخر و للسماء أخرى و للأرض أخرى ،و كذلك لكل شيء.لكنه

---

1)- الهالك .

2)- العلق /3-4-5.

3)- القلم/1.

4)- البيان و التبيين ص39.

5)-نفسه،ج1، ص79.

6)-نفسه، ج4، ص24.

لو أجري الأمر على ذلك لكان الإنسان ممنوا بأن يحفظ الدلائل على معاني النفس ألفاظا و يحفظها نقوشا و الأول يسهل له إما برياضة التربية و إما بتعلم شاق فإذا ألزم مرة ثانية أن يحفظ كتابة بهـــذه الصفة كان كمن يلزم تعلم لغة من رأس .فوجد الأخف في ذلك أن يقصد تعلم إلى الحروف الأولى القليلة العدد فيوضع لها أشكالا ،فيكون حفظها مغنيا عما سلف ذكره فإنها إذا حفظـــت بتأليفهـــا رقما تأليف الحروف لفظا، فصارت الكتابة بهذا السبب دليلا على الألفاظ أولا"[1]

يمكننا أن نقدم شكلين توضيحيين نبين فيهما تركيب دلالة الخط عند شراح و مفسري أرسطو و عند الجاحظ

-أرسطو

خط ـــــــــــ لفظ ـــــــــــ صورة ذهنية ـــــــــــ أمر خارجي

(دلالة خارجية) (دلالة خارجية) (دلالة طبيعية)

من خلال هذا الرسم التوضيحي نلاحظ أن دلالة الخط عند أرسطو تتألف من ثلاثة دلالات

-الجاحظ

خط ـــــــــــــــــــــــــــــ صورة ذهنية

دلالة خارجية(عرفية)

نلاحظ أن دلالة الخط عند الجاحظ هي دلالة لا تحتاج إلى توسط الدلالة اللفظية فهي تربط مباشرة الخط بالمعنى.

أما عند علماء اللسانيات الحديثة أمثال دي سوسير وورومان جاكبسون نجد أن دي سوســـير يميز بين النظامين اللفظي والخطي ويكشف الفرق الجوهري بينهما في كتابه محاضـــرات في الألســـنة العامة.

1)- عادل فخوري علم الدلالة عند العرب دراسة مقارنة مع السيمياء دار الطليعة بيروت الطليعة بيروت ط4سنة 2003،ص7

(cours de linguistique gènèrale)يقول:"...إن الدوال السمعية لا تتهيأ ولا تنتظم إلا على خط طولي،وهذا العناصر السمعية يعقب بعضها بعض الآخر حضورا مما يجعلها تكون سلسلة و تتجلى هذه الخاصية على المباشرة كلما مثلنا تلك العناصر في الكتابة المرسومة وكلما استبدلنا الخـــط الطولي المكاني بالدلالات المسطورة بالتتالي في الزمان"[1]فدي سوسير يرى أن الدوال السمعية الصوتية تتهيأ لنا على شكل خط طولي زماني في سلسلة منتظمة من الرموز ولن تتجلى هذه الخاصية إلى عبر الكتابة المرسومة وبالتالي الخط هو الوحيد الذي يمكنه إظهار هذه الدوال ،وكما هو معلوم فـــدي سوسير أحد أنصار اللغة المنطوقة والداعي إلى دراسة اللغة انطلاقا مما هو منطوق (الكلام)فهو يرى أن الكتابة خادعة فلا بد من اجتياز الشكل المكتوب للوصول إلى اللغة ودراستها دراسة موضوعية في وسطها الاجتماعي.

أما رومان جاكبسون[2] يؤكد أن ثنائيتي التواصل بالكلام والتواصل بالكتابة ثنائيتان جد هـــامتين فوظيفة التواصل التي ناد بها والتي تتيح للإنسان الاتصال ببني جنسه ذات طابع ثنائي يتمظهر.
في شكلين أساسيين :

- التبليغ الشفاهي: communication orale
- التبليغ الكتابي : communication écrite [3]

والكتابة عنده ما هي إلا وجه من أوجه التعبير عن اللغة المحكية – الكلام – بواسطة رمـــوز وإشارات مكانية خطية لها أهمية كبيرة " في حفظ الكلام الذي يزول فور إلقائه شفهيا أو نقله مـــن مكان بعيد عن المكان الذي ألقي فيه في حين يزول الكلام بمرور الزمن فالكتابة تبقى دعامة مهمـــة

---

1)-محاضرات في الألسنية العامة،ص51.

2)-رومان جاكبسون ولد في موسكو 11/تشرين الاول1896 من عائلة يهوديةروسية برجوازية ميسورة الحال تهتم كثيرا بالأسفار مما نشأ في جـــو حافل بالكتب والأدوات الموسيقية وكان والداه يهتمان بالرسم والانفتاح على الثقافة الأجنبية والأفكار الجديدة وكانا يتمتعان بثقافة عالية تحصل علـــى شهادة في الهندسة كان محبا للأبحاث والعلوم وقد تلقى رومان جاكبسون تعليمه وعلومه في مؤسسة لا زاريف(lazarev)وفي هذه المرحلة تعرف على أساتذة مرموقين أمثال بوغادانوف(bougadanov)ونار سكي(narski)كما كان من المهتمين بالمطالعة وحب القراءة خاصة القصص بالإضافة إلى إتقانه عدة لغات كالفرنسية والألمانية واللاتينية كما جاب عدة أقطار وهذا لأسباب حربية ومن أهم مؤلفات:

- دراسات في الألسنية العامة: essais de linguistique gènèrale

- مسائل الشعر:questions de poètique(للاستزادة ينظر :فاطمة الطوبال بركة ،النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ،ط1،سنة1993،ص15 وما بعدها و ميشال زكرياء،الألسنية علم اللغة الحديث ،المؤسسات الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ،بيروت،ط1،1980،ص ص 260-261.

3)-النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون،ص49

أكثر ثبوتية وانتشارا في المكان والزمان فهي نظام سيميائي مرئي ودلالي يبدي فونيمات ومقاطع تعمل عامة كدلالات عن الوحدات المطابقة لها في اللغة المحكية "[1]

تجدر الإشارة إلى أن رومان جاكبسون أعطى الأهمية البالغة لدوري التواصل الكلامي والكتابي في دراسة اللغة يقول :"لا يمنع أن تبقى الثنائية محصورة في التواصل الكلامي والتواصل الكتابي فلا تتم دراسة اللغة بشكل كامل إلا إذا تناولت شكلي التواصل هذين"[2]

ثم يذهب الجاحظ إلى مسألة تبدو في غاية الأهمية ألا وهي العلاقة الرابطة بين الخط و المعنى المعبر عنها، فهي علاقة عرفية غير معللة تفهم من خلال الممارسة والاكتساب ،فيعرف منها في تلك الصور وكثرة ترددها على الأسماء ويعرف منها ما كان مصورا من تلك الألوان لطول تكررها على الإبصار كما استدلوا بالضحك وصور جميع الهيئات.[3] وكما عرف المجنون لقبه والكلب اسمه ، وعلى مثل ذلك فهم الصبي الزجر والإغراء وردع المجنون الوعيد[4] ،وعليه يؤكد أبو عثمان عرفية دلالة الخط لكنه لم يخصها لوحدها بهذه الخاصية فهناك دلالة الصوت والإشارة جعلهما دلالتين عرفيتن تكتسبان عن طريق التكرار و التعلم في بعض الأحيان.

يمكننا أن نقدم عرفية وتواضعية دلالة كل من اللفظ والخط والإشارة وفق المخطط التوضيحي الآتي :

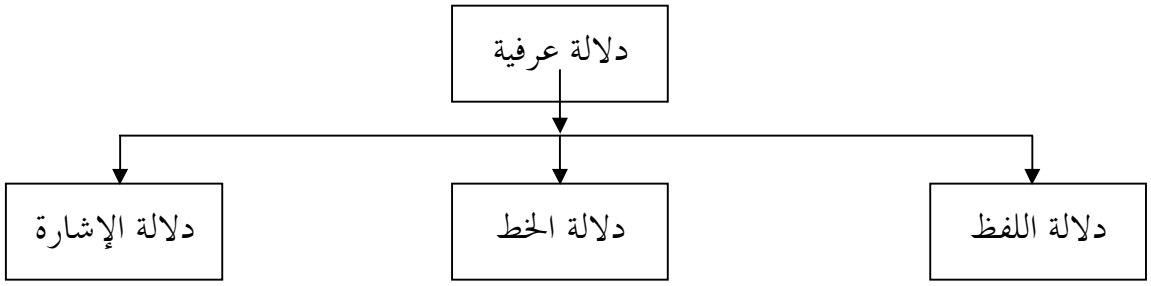

1)-النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون ،ص49-50.

2)-نفسه ،ص50 .

3)- الجاحظ بهذا المفهوم يتفق مع التصور الحديث الذي يرى أن الكثير من الدلالات العرفية التي تبدو أحيانا كاستدلالات طبيعية وفي هذا يقول الدكتور إبراهيم أنيس ((والحقيقة أن تلك الشهقات والتأوهات لا تعدو أن تكون أصواتا عرفية تختلف باختلاف الشعوب والأمم فيصوت الدهشة عندنا " AH" وليس "OH" كما هو الحال عند الانجليز الذين استقى منهم داروين ملاحظته، فلكل شعب صوت خاص عند البكاء أو الأنين أو الدهشة أو الازدراء ونحوها من الانفعالات الغريزية .

وقد كتب كبلينج في إحدى رواياته يصف إحدى الشخصيات فقال: ((لا أظن أن الرجل من الأفغان لأن الناس هناك يبكون بالصوت آي آي " AI - AI" كذلك لا أظن أنه هندستاني لأنهم يبكون بالصوت" OH OH" إن الرجل يبكي كما يبكي الرجل الأوربي فيقول : OW OW"! (ينظر:د/ إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، سنة1998م، ص18)

4)- ينظر : الحيوان ، 1 ،ج1 ص 48

5- دلالة النصبة

النصبة إقامة الشيء ورفعه ... فمعاجم اللغة تجمع على أن الارتفاع والظهور من دلالات مادة (ن- ص- ب-) ومنها تيس انصب أي منصب القرون ، وناقة نصباء ، مرتفعة الصدر... ومنها أيضا النصبة للسارية والغية ، والنصاب الأوثان..."[1]

أما عند الجاحظ فإن " النصبة هي الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد ذلك ظاهرة في خلق السموات والأرض وفي كل صامت وناطق ..."[2]

الحديث عن مفهوم النصبة لا يمكن تصور أبعاد إلا بتصور مفهوم الصفر وظيفته في العمليات الحسابية والعددية [3] ،فإنه وإن دل في ذاته وفي دلالته الهامة في عمليات الحسابية الأخرى ، فهو مدلول بغير دال ومعنى بغير كلام وهذا ما يمكن أن نلحظه في قول شاعر :

واعلم بأن السُّكون إبانة و من التَّكلم ما يكون خَبالا

إن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وصوره في أحسن هيئة فكانت نصبته وحاله دليلا على قدرت الخالق جل وعلا قال تعالى :﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾[4] وقال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ﴾[5] و قال﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾[6]

في هذه الآيات الكريمات يأمرنا المولى تبارك وتعالى على التأمل والتدبر في أنفسنا والهيئة التي خلقنا عليها ثم التأمل في جميع ما وجد في هذه الأفق الواسع الممتدة والمسخر لهذا الإنسان قال تعالى :﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ

---

1) –لسان العرب ،ج1،ص 758 وما بعدها

2)- البيان والتبيين، ج1 ،ص81.

3)- ينظر المدارس اللسانية في التراث العربي ،ص19

4)- الإنسان/ 1-2.

5)- الانفطار/6-7-8.

6)- الطارق/5-6.

الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1] في الآية الكريمة دعوة صريحة إلى التأمل في كل آية من آيات هذا الكون والعقل هو الأداة الوحيدة للتفكير والتأمل والنظر فهي هبة ونعمة من الله سبحانه وتعالى منحها إياه عن سائر المخلوقات ليرى فيشكر[2] وبالتالي تميز الإنسان عن كل المخلوقات، فالعقل يعتبر تكريما له وهو وسيلة للاستدلال على المعارف الباطنية يقول الجاحظ :" فلا تذهب إلى ما تريك العين واذهب إلى ما يريك العقل ، وللأمور حكمان : حكم ظاهر للحواس وحكم باطن و العقل هو الحجة "[3]فلولا العقل لما استطاع الإنسان معرفة نفسه والعالم المحيط به ومن ثم معرفة الله عز وجل والإيمان به إيمانا يليق بمقامه وهذا نبي الله عيسى ابن مريم عليه وعلى آمه السلام قال :البر ثلاثة المنطق والمنظر والصمت ، فمن كان منطقه في غير ذكر فقد لغا ومن كان نظره في غير اعتبار فقد سها ومن كان صمته في غير فكر فقد لها "[4] فما نشاهده من عوالم عوالم في هذا الكون الرحب يحتاج إلى تأمل وصمت حتى نكتشف قدرة الخالق الذي خلق هذه العوالم ونصبة إحداها .

النصبة تصور قلب اللسانيات الحديثة رأسا على عقب، فالمعنى حسب رأي الجاحظ ليس الوجه الخفي للدال ولكن مدلول بغير دال أو مدلول ودال سلبي[5] فهذا المفهوم الذي جاء به الجاحظ ينطلق أساسا من فكرة مهمة في التصور العقدي الديني ألا وهي إثبات قدرة وعظمة ووحدانية الله سبحانه وتعالى، فهو متأثر تأثرا شديدا بالدين والنصبة إحدى أهم الدلالات التي لها القدرة على إثبات قدرة الله عز وجل.

لم يفصل الجاحظ بين دلالة ناطق وصامت من جهة النصبة حتى كان عنده كل ما في الكون نظاما وبيانا يدل على قدرة الخالق يقول: "وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض وفي كل صامت وناطق وجامد ونام ومقيم وظاعن، وزائد وناقص ،فالدلالة التي في الموات الجامد كالدلالة التي في الحيوان الناطق، فالصامت ناطق من جهة الدلالة والعجماء معربة من جهة البرهان"[6]وإذا أردت أن تسأل الأرض فاسألها فإنها ستجيب بأي حال من الأحوال كما قال الفضل بن عيسى بن إبان: " سل

---

3)- البقرة/164.

2)- ينظر: المناحي الفلسفية عند الجاحظ،مرجع سابق ص96.

3)- الحيوان، م1،ج1، ص114.

4)- رسائل الجاحظ، ص168.

5)- ينظر: المدارس اللسانية في التراث العربي،ص19.

6)- البيان والتبيين،ج1، ص81.

الأرض فقل: من شق أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حوارا أجابتك اعتبـــارا"[1] وقال بعض الخطباء: " أشهد أن السموات والأرض آيات دالات وشواهد قائمات، كل يؤدي عنك الحجة ويشهد لك بالربوبية موسومة بآثار قدرتك، ومعالم تدبيرك، التي تجليت بها لخلقك، فأوصلت إلى القلوب من معرفتك ما أنّسها من وحشة الفكر ورجم الظنون. فهي على اعترافها لك، وافتقارها إليك شاهدة بأنك لا تحيط بك الصفات، وتحدك الأوهام، وإن حظ الفكر فيك الاعتراف لك "[2]

النصبة مهما تعددت آياتها وكثرت فإنها تتسم بصفة أساسية ومهمة وعلـــى مبـــدأ أساســـين فالجاحظ يرى أن الشيء متى دل على معنى فقد أخبر عنه وإن كان صامتا وأشار إليـــه وإن كـــان ساكتا[3] فقد جعل أبو عثمان العالم وما فيه من علامات ورموز وشواهد سواء كانت هـــذه العـــوالم ناطقة أو صامتة أو ساكتة فإنها تدل على جملة من المعاني، فهي لم توجد اعتباطا بل كونهـــا حاملـــة رسالة لأصحاب العقول الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض وما بينهما، فكل تفكير فيهـــا (العوالم) هو اعتراف بالله عز وجل والإيمان به فالإنسان حينما يستعمل عقله في الـــتفكير والتـــدبير والتأمل في هذا الكون وما احتواه من عناصر فإنه يتوصل إلى إدراك اليقين انطلاقا مـــن مخلوقـــات الله،فحكمته تتجلى لنا في مخلوقاته بداية من أبسطها فكل شيء دليل على الدقة والقدرة الربانية قال خطيب من الخطباء حين قام على سرير الإسكندر وهو ميت:« الإسكندر.كان أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس ».[4]

إن نصبة وحالة وهيئة الأشياء دليل نستطيع أن نستدل بها على حقائق ومعاني كامنة في هـــذا الشيء المنتصب ،فقديما كان الناس يستدلون على ذكاء وعلم الرجل انطلاقا من حالـــه الظـــاهري وهيئته وهذا ما حكم به أبو عثمان على سهل بن هارون " وكذلك كان سهل ابن هـــارون عتيـــق الوجه، حسن الشارة، بعيدا من الفدامة، معتدل القامة، مقبول الصورة، يقضى له بالحكمة قبل الخبرة وبرقة الذهن قبل المخاطبة،ودقة المذهب قبل الامتحان، وبالنبل قبل التكشف، فلم يمنعـــه ذلـــك أن يقول ما هو الحق عنده وإن أدخل ذلك على حالة النقص ".[5]

---

1)- البيان والتبيين ،ج1 ،ص81 .

2)- نفسه.

3)- ينظر: نفسه، ص ص 81 -82.

4)- نفسه ، ج1 ، ص81.

5)- نفسه، ص89.

إن النصبة في النص السابق هي العلامة الشاهدة الظاهرة للعيان تدل على أمر غائب هو المهارة الخطابية لسهل ابن هارون فالحكم عليه بذلك كان انطلاقا من السمات المميزة له باعتبارها علامات دالة على مكانة وقدرة الرجل الخطابية وها هو نص آخر يقول فيه الجاحظ:" وقع بين فتى من النصارى وبين ابن فهريز[1] المطران كلام ، فقال له الفتى : ما ينبغي أن يكون في الأرض رجل واحد أجهل منك! وكان ابن فهريز في نفسه أكثر الناس علما وأدبا و كان حريصا على الجثلقة، فقال للفتى: وكيف حللت عند هذا المحل ؟ قال: لأنك تعلم أنا لا نتخذ الجثاليق[2] إلا مديد القامة وأنت قصير القامة ،ولا نتخذ إلا جهير الصوت، وأنت دقيق الصوت رديء الحلق، ولا نتخذه إلا وهو وافر اللحية عظيمها وأنت خفيف اللحية صغيرها، وأنت تعلم أنا لا نختار للجثلقة إلا رجلا زاهد في الرياسة وأنت أشد الناس عليها كلبا، وأظهرهم لها طلبا فكيف لا تكون أجهل الناس وخصالك هذه كلها تمنع من الجثلقة و أنت قد شغلت في طلبها بالك و أسهرت فيها ليلك "[3] فأبو عثمان في هذا النص حاول أن يعطي لنا سرا جميلا من خلال هذه المقارنة اللطيفة التي أجراها بين الفتى النصراني و بن فهريز و في الأخير يقرر أن العلامات الظاهرة تعتبر معيارا للتفاوت في ما هو شاهد هذا يؤكد لنا شيئا مهما و هو مدى أهمية الاستدلال بالنصبة على المعنى في كل الظروف و الأحوال سواء كان من طرف السامع ، أو الناظر فهما يبحثان عن المعاني و الدلالات في كل ما يقع أمامها من العلامات و الأدلة . فالحقيقة السيميائية التي تتجلى لنا في دلالة النصبة عند الجاحظ هي تأكيده على ما هو ظاهر و شاهد ،فإعطائه معنى من المعاني حتى و إن كان هذا الشيء صامتا أو ساكتا.

من خلال ما تقدم نستطيع أن نقول و دون مبالغة إن النصبة أو كما تسمى بالدليل العدمي كانت نتيجة الاحتدام الذي دار بين الفرق الكلامية في إثبات قدرة ووجود الخالق عز وجل و هذا ما توصلت إليه الدراسات اللسانية الحديثة أثناء دراستها للغات الإنسانية في تفسيرها لدلالة العدم إذ يصبح السلب أحيانا دليلا على الإيجاب و السكوت دليلا على الكلام[4] و هذا ما أشار إليه أبو

---

1)- ابن فهريز أو بهريز اسمه عيد يشوع كان مطران حران ثم صار مطران الموصل، وله رسائل وكتب ذهب فيها إلى إبطال وحدة القوم التي يقول بها اليعقوبية والملكية وكانت له حكمة قريبة من حكمة الإسلام وقد نقل من كتب المنطق والفلسفة شيئا كثيرا (من على هامش البيان والتبيين، ج1، ص.124

2)- الجثاليق: القسيس الأكبر

3)- البيان والتبيين ، ج1 ، ص ص 125-124

4)- ينظر: المدارس اللسانية في التراث العربي، ص20.

عثمان بكل وضوح بقوله : " و متى دل الشيء على معنى فقد أخبر عنه وإن كان صامتا و أشار إليه و إن كان ساكتا و هذا القول شائع في جميع اللغات و متفق عليه مع إفراط الاختلافات "[1]

كما يمكن اعتبار النصبة علامة تمثل كل الدلالات فهي بالنسبة الجاحظ العلامة الكونية الدالة فقد تحل محل الأقسام الأربعة الأُخْرَى فهي كما يقول الجاحظ أنها أحد قسمي الحكمة هذه الحكمة التي مفادها التأمل في هذا الكون و ما فيه من عوالم يقول الجاحظ في ذلك :" فموضوع الجسم ونصبته دليل على ما فيه و داعية إليه و منبهة عليه فالجماد الأبكم الأخرس من هذا الوجه قد شارك في بناء الإنسان الحي الناطق ، فمن جعل البيان خمسة [أقسام] فقد ذهب أيضا مذهبا له جواز في اللغة وشاهد في العقل ،فهذا أحد قسمي الحكمة و أحد معنيي ما ستخزنها الله تعالى من الوديعة " [2] وفي ذلك يقول :"... النصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف و لا تقتصر عن تلك الدلالات ...".[3]

لقد كانت لدلالة الأقسام الخمسة عند الجاحظ علاقة مهمة بعقيدة التوحيد كما أشرنا إليه أثناء حديثنا عن أسس تصور العلامة عنده، فبحثه عن الدلالة كان له هدف واحد هو الوصول إلى حكمة الخالق الديّان التي تتجلى لنا من خلال هذا الكون وما فيه من عوالم فهي تسير وفق نظام عجيب ودقيق، ينبئ عن قدرة الله سبحانه وتعالى، واكتشاف أبو عثمان لهذه الدلالات لم يكن من محض الصدفة أو ضرب من الطلاسم بل تصور قائم على العقل باعتباره مصدر لكل معرفة .

كما بينا أن كل من دلالة اللفظ ودلالة الإشارة ودلالة الخط هي دلالات عرفية تواضعية حيث قام أبو عثمان بتفريعها إلى ثلاث دلالات ثم أضاف إليها دلالة العقد ودلالة النصبة كقسمين آخرين أما فيما يخص ترتيبه لهذه الأنواع الخمسة ربما أنه قد اعتمد على مبدإ جد مهم وهو مبدأ ظهور الدال أو غيابة فبدأها بالدلالة العرفية(اللفظ- الإشارة- الخط) ثم جعل دلالة النصبة آخر الدلالات باعتبارها تمثل دلالة العدم أو الغائب وجعل دلالة العقد دلالة وسطا (مترلة بين المترلتين) ونعني بذلك أنها دلالة بين ظهور والغياب.

---

1)- البيان والتبيين، ج1، ص ص 81 -82.

2)- الحيوان تح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل بيروت، 1965، ج1، ص35.

3)- البيان والتبيين، ج1، ص76

إن الجاحظ يقترب في تقسيمه هذا من التقسيم الثلاثي للدلالة عند علماء العـــرب كمـــا أنـــه يقترب من أنواع الدلالات عند بيرس، يمكننا أن نجري مقارنة بسيطة بين ما جاء به العلماء العرب وبيرس في الخطط التوضيحي الآتي:[1]

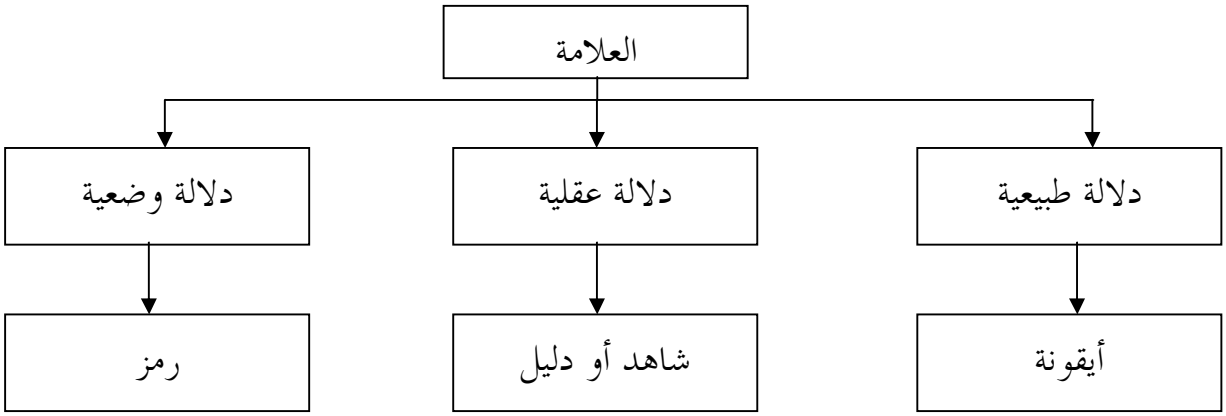

أما التقسيم الثلاثي عند العرب والجاحظ يمكننا أيضا أن نوضحه في المخطط التوضيحي التالي :

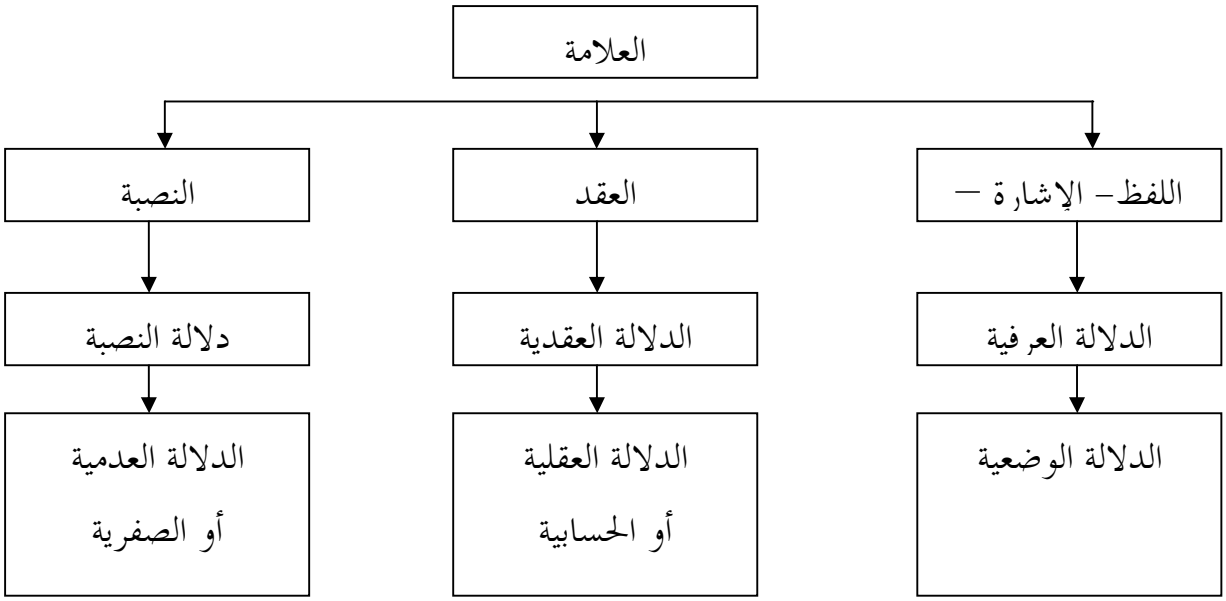

1)– للاستزادة ينظر: علم الدلالة عند العرب، ص13 وما بعدها،و أيضا : عادل فاخوري، تيارات في السيمياء، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، 1990، 23 وما بعدها.

في حين نجد أرسطو يقسم العلامة إلى قسمين (تقسيم ثنائي)جاعلا كلا من الدلالة العقلية و الطبيعية دلالة واحدة سماها بالدلالة الطبيعية بالإضافة إلى الدلالة الوضعية.[1]

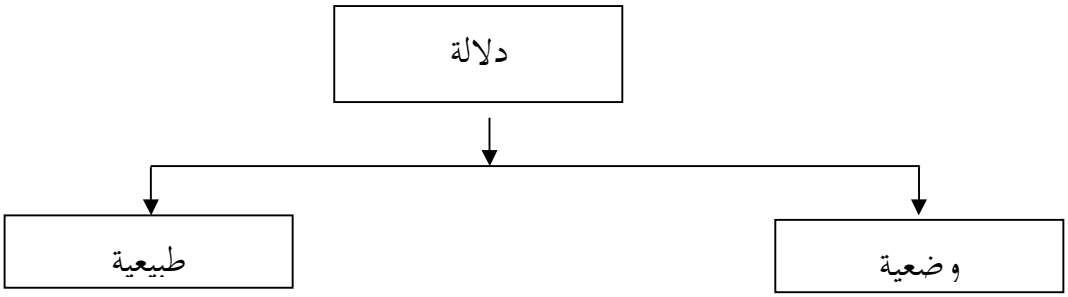

إن ما جاء به الجاحظ سواء من حيث الاكتشاف أولا الترتيب لهذه العلامات لينم عن عقلية متميزة لهذه الشخصية الفذة، كما أن توصله لها كان الهدف منه خدمة لدين الإسلامي فهي تحمل الكثير من التأملات الفكرية والعقلية والملاحظات الإجرائية والمستمدة من توجيهات الفكر الإسلامي إنها دعوة إلى التأمل في هذا الكون العجيب إذ اعتبرها الجاحظ علامة تستحق التأمل من أجل الوصول إلى قدرة الخالق وعظمته التي تتجلى لنا في دقة هذا النظام الكوني وفي ما يحتويه من عوالم.

1)- ينظر: علم الدلالة عند العرب، ص13 وما بعدها

الفصل الثاني

آليات إنتاج العلامة اللغوية

عند الجاحظ

أولا– العلامة اللغوية عند الجاحظ

ثانيا–علاقة العلامة اللغوية بمفهوم النظام

ثالثا–العلامة اللغوية من خلال العلاقات الاستبدالية والتركيبية

رابعا–السياق والمقام وأثرهما في إنجاز الدلالة

أولا–العلامة اللغوية والدرس السيميولوجي الحديث:

إن جهود العلماء العرب التي بذلت من أجل فهم الآليات التي تتحكم في الدلالة اللفظية وكيفية نشوئها كانت نتيجة الاهتمام بالقرآن الكريم ومحاولة فهم أسراره ،فجاءت أعمال الجاحظ من أجل خدمة هذا القرآن بمؤلفه نظم القرآن[1] ،وعليه كان من بين العلماء الأفذاذ الذين أرادوا خدمة هـــذا الدين فطرح قضية الدلالة وتتبع أشكالها انطلاقا من فكرة النظم التي جاء بها، إلا أن هذا الطرح تميز بالسطحية في التحليل ،ورغم هذا وذاك فإن الرجل فتح بابا مهما لمن جاؤوا بعده .

غير أن الدراسات اللغوية الحديثة تميزت عن سابقتها بوضوح المنهج ودقة الرؤية وهـــذا كـــان نتيجة التغيرات العلمية والاجتماعية الحاصلة عبر مرور الأزمان التي كان لها الأثر الواضح في ذلك .

إن من يمثل هذه الرؤية الدقيقة والمنهج الواضح في دراسة اللسان البشري بالمفهوم العلمي العـــالم اللغوي الشهير دي سوسير الذي احدث ثورة في أوساط علماء اللغة ،بمجيئه بمجموعة من الثنائيات ،والذي يهمنا منها ثنائية الدال والمدلول التي أعطها بعدا آخر خاصة عندما تطرق إلى العلاقة بينهما ،إذ الدليل اللساني مركب من الدال والمدلول وهو أمر مزدوج يقوم على تقريب حدين في الحكم[2]

فالدليل اللساني عند دي سوسير يتكون من أمرين هما أ–الـــدال -le signifiant –وهـــو مجموعة الأصوات القابلة للتقطيع أو بما يسمى الصورة الصوتية أو السمعية المتمثلة في الإدراك النفسي الناتج عن تتابع الأصوات مثل:–ر–ج–ل–

ب–المدلول — le signifie وهو المفهوم أو المعنى –التصور –concept–ويتشكل مـــن مجموع السمات الدلالية مثل :رجل–إنسان–حي–عاقل–بالغ–ذكر ...مجموع هذه العلامات هـــو الذي يكون لنا مفهوما أو تصورا ،كما أن هذين العنصرين يتميزان بارتباط شديد لا يمكـــن فصـــل أحدهما عن الآخر ،فهما تنشأ بينهما علاقة حيوية أثناء العملية التواصلية ،إذ يقتضي وجود أحـــدهما وجود الآخر[3] فلو أن أحدا ما نطق صورة سمعية ما –دال– دون أن يكون على وعي بسماته الدلالية فإن هذا الدليل يبقى مجرد أصوات ليس إلا ،كما أن وجود مدلول دون دال لا يمكن أن يكون لنـــا دليلا لسانيا.

---

1) – لم يعثر عليه إلى اليوم وإنما جاء ذكره في بعض مؤلفات الجاحظ كالحيوان مثلا.و لم يكن الجاحظ الوحيد من اللغويين الذي أشار إلى فكرة النظم فهناك ابن المقفع و سيبويه و بشر بن المعتمر .

2) Voir: ferdinand de sauss, cours de linguistique generale, enaG/alger,reghaia 1990 p107 .

3)–ينظر: محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، ص ص 12-13- ،14 و ،cours de linguistique generale/ p108

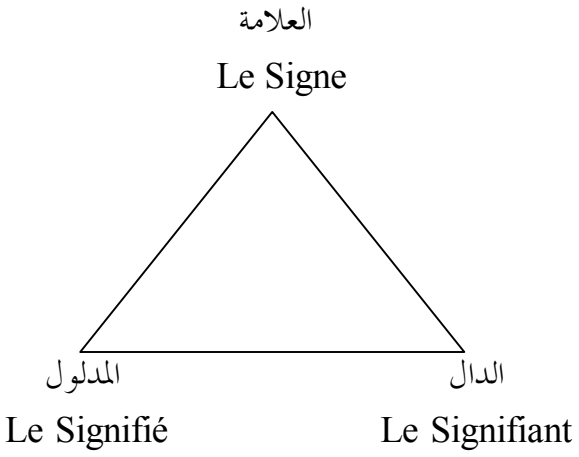

1-اعتباطية الدليل اللغوي:

إن المراد بالاعتباطية-arbitraire -هي عدم وجود علاقة منطقية أو معللة بين الدال والمدلول إذ لا يتحد الدال مع المدلول وفق اقتضاء منطق ،وإنما ينشأ ذلك الرابط بينهما من قبيل المواضعة والاصطلاح بين أفراد المجتمع الواحد ،إلا أن الجدير بالذكر أن مبدأ الاعتباطية غير محققة في بعض الأحيان مثل بعض الأصوات الطبيعية تثبت بأن الدال ليس دائما اعتباطيا[1-2].

2-مبدأ الخطية للدال اللغوي: -l inearite-

إن الطبيعة الصوتية التي يتميز بها الدال اللغوي ،تجعل عناصره تأتي على شكل تعابير صوتية وفق خط زمني ، ترصف فيه، فتأتي متتابعة الواحد منها تلو الآخر مكونة سلسلة ،فمن غير المعقول أن يتلفظ المتكلم بصوتين في الوقت ذاته ،وتتجلى هذه الخاصية أكث في الكتابة المرسومة مثلا لو أخذنا كلمة -كُتِبَ-تأتي الضمة بعد الكاف والكسرة بعد التاء والفتحة بعد الباء ،كما يظهر لنا ذلك في الكتابة الصوتية –kutiba-أما التدوين بالحروف العربية يكون على النحو الآتي : /كـ/-ُ +/ت/-ِ /ب/+ -َ وليس /كـ/ +/ ت / +/ ب / أو /كُـ /+/ تِ/ + /بَ/

أما فيما يخص السكون لا يمكن عدها حركة من بين الحركات فكلمة (لن) تكتب صوتيا هكذا / Lan / وتجزأ كالآتي : /ل/ +-َ /ن/ وليس /ل/+ -َ/ ن/ +-ْ

---

1)- ينظر : دي سوسير ، محاضرات في للألسنية العامة ، تر : يوسف غازي مجيد النصر ، المؤسسة الجزائرية للطباعة ، ص 91 و مدخل للسانيات سوسير ، ص 43 و ما بعدها .

2)- اعترض بشدة العالم اللغوي بنفينيست على ديسوسير الذي قال بأن العلاقة بين الدال و المدلول اعتباطية ، فهو يرى أنها علاقة تلازمية بينما الاعتباطية بين الدال و الشيء الخارجي (المرجع) .

وكذلك حروف المد لا يمكن عدها من الحروف فكلمة [قال] تكتب صـــوتيا / Qala / وتجـــزأ كالآتي : /ق/+ ـَـــا + /ل/ + ـَ أما الرمز ـــا يقابل/ a / [1]

إن مبدأ الخطية للدال قائم على عدم إمكانية نطق صوتين في نفس الوقت وعدم تكـــرار نفـــس الأصوات عند النطق بها .

لقد قلنا في الفصل السابق بعرفية و تواضعية اللغة عند الجاحظ من خلال المحالة التي قمنا بهـــا وهذا انطلاقا من مجموع النصوص التي وجدناها مبثوثة في المدونة ،فالجاحظ يرى أن الفرد يكتسب لغته من الاحتكاك الناشئ بينه وبين المجتمع اللغوي الذي يعيش فيه ،كما أن الدليل اللغـــوي عنـــده يختلف بشكل أو بآخر عنه عند دي سوسير .

العلامة اللغوية عند الجاحظ كيان يتشكل من ثلاثة عناصر أساسية من أجـــل حـــدوث عمليـــة الاستدلال :

-الدال :كالخبر الذي سماه بالمعاينة

-المستدل عليه :(المدلول) وهو المعنى الخفي

-المستدل :وهو العقل الذي أعلى من شأنه كما ر أينا ذلك في الفصل الأول(مبحـــث أســـس تصور العلامة)

وعليه نجد أن العلامة عند الجاحظ مكونة من ثلاثة عناصر ، وهي غير قابلـــة للاختـــزال أو النقصان.

إن الجاحظ حينما تحدث عن عملية الاستدلال لم يقتصر ها على العلامة اللفظية أو البصـــرية ،وإنما تعداه إلى كل أصناف الدلائل الممكنة من لفظ وغير لفظ.

فهي تقترب من التصور الذي جاء به بيرس ،فعملية الاستدلال تقوم على ثلاثة عناصر :

- الممثل :representament

-الموضوع :objet

-المؤول:Interpretant

---

1)- ينظر : محاضرات في اللسانيات العامة ص 114 ، و د/ مصطفى حركات ، اللسانيات العامة ، دار الآفاق ص ص 18 - 19 .

-هذه العناصر الثلاثة ،هو تصور للدلالة بمختلف أنواعها سواء كانت لفظية أو غير لفظية عند بيرس مثله مثل الجاحظ.

من خلال هذه المحاولة المتواضعة سوف نحاول أن نجري مقارنة بين بيرس و الجاحظ فيما يخص عملية الاستدلال عندهما ،إنه لأمر عجيب أن نجد هذا التقارب والتشابه في الأفكار بين الـــرجلين رغم بعد الأماكن و الأزمان واختلاف العقائد والأديان ،لأن العلم يتجاوز هذه الحدود ولا يلقي لها بالا.

-إن مفهوم الممثل يقترب من مفهوم الخبر والمعاينة عند أبي عثمان فالممثل على حد تعبير الـــدكتور مبارك حنون يمثل شيئا ما وهو الصورة الصوتية أو المرئية –البصرية- إذا كان الأمر يتعلـــق بكلمـــة معينة ...إنه ناقل الدليل من زاوية مظهره الثاني[1] .

- أما الموضوع –ما يمثله الدليل ،وهو غير مجسد ،وهو ضروري لتبليغ أي أخبار ... [2] إنه المعـــنى الخفي المضمر عند الجاحظ .

-في حين أن المؤول هو الذي يربط بين الممثل والموضوع أما عند الجاحظ العقل الذي يـــربط بـــين المعنى الخفي والعيان أو الخبر ويمكننا أن نمثل تصوريهما في المخططين البيانيين الآتيين :

-بيرس

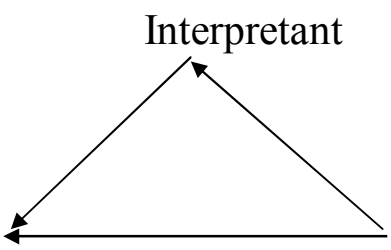

-الجاحظ

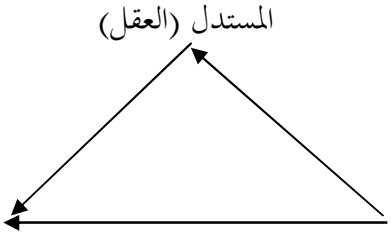

1)- ينظر : دروس في السيميائيات ص 46 .

2)- نفسه .

ثانيا– مفهوم العلامة اللغوية عند الجاحظ

قبل التطرق إلى البحث في حيثيات هذا الفصل لابد من التذكير بأمر –نرى أنه مهم –يتطلب منا التنبيه إليه ،بحيث أننا سنقوم في هذا الفصل – إن شاء الله –بالتركيز على العلامة اللغوية كونها أهم وحدة لغوية تركب لنا هذه الصيغ التركيبية التي نتواصل بها.

إن دراسة العلاقة بين اللفظ والمعنى تعد من أهم الدراسات والقضايا التي دارت حولها أبحاث باتت الشغل الشاغل للباحثين الذين تناولوها بمواقفة مختلفة،مما أدى إلى تضارب الآراء في كثير من الأحيان حولها،و أول من بعج باب الخلاف فيها الهنود فمنهم من صرح بان العلاقة بين اللفظ ومعناه علاقة فطرية أو طبيعية ،و بعضهم رأى أن اللغة نشأت على أساس من محاكاة الأصوات الموجودة في الطبيعة ، ومنهم من قال بضرورة العلاقة بين اللفظ والمعنى وشبهوها بالعلاقة اللزومية بين الدخان والنار ، وهناك من رأى أن العلاقة بينهما مجرد علاقة حادثة خضعت لإرادة إلهية . أما الفلاسفة اليونان فقد بحثوا هذه العلاقة بين الدال والمدلول التي بقيت عندهم ردحا من الزمن حتى عصر أفلاطون و أرسطو حيث ميز أرسطو بين الأشياء في العلم الخارجي والتصورات (المعاني) والأصوات (الرموز أو الكلمات)

في حين نجد أن كثيرا من العلماء المسلمين يرون أن العلاقة بينهما (اللفظ والمعنى) علاقة اصطلاحية اتفاقية أمثال :ابن سينا،و ابن جني والإمام السيوطي وعبد القاهر الجرجاني ...

قبل أن نبدأ في الكلام عن العلاقة بين اللفظ والمعنى(العلامة اللغوية) عند الجاحظ لابد أن نتناول المعنى اللغوي والاصطلاحي لمفهوم اللفظ[1] و المعنى .

المعنى:معنى كل شيء :محنته وحاله التي يصير إليها أمره ،وروى الأزهري عن أحمد بن يحي قال:المعنى والتفسير والتأويل واحد .

عنيت بالقول كذا :أردت .ومعنى كل كلام ومعانته ومعنيته كمقصده ،و الاسم العناء يقال: عرفت ذلك في معنى كلامه ومعناة كلامه وفي معنى كلامه .وعنوان الكتاب :مشتق فيما ذكروا من المعنى ، وفيه لغات :عنونت وعنيت وعننت ،وقال الأخفش :عنوت الكتاب واعنه ،وأنشد يونس :

فَطِنُ الكِتَابِ إِذَا أَردتَ جَوَابَهُ وَاعْنُ الكِتَابَ لِكَي يُسَرَّ ويُكْتَمَا[2]

---

1) - اللفظ قد تناولناه من الناحية اللغوية و الاصطلاحية في الفصل الأول من هذا البحث

2) – لسان العرب، ج15ص 106، والفيروز أبادي ، القاموس المحيط ،دار الكتب العلمية ،بيروت –لبنان ط1،1995م،ج4،ص 415. وابن فارس ،مقاييس اللغة، دار الجيل بيروت ،تح وضبط عبد السلام محمد هارون ، ط2،ج4نص 146.على الهامش .

إن مفهوم العلامة اللغوية عند الجاحظ هو اللفظ كما أشار إلى ذلك الدكتور أحمد حساني في كتابه مباحث في اللسانيات التطبيقية ،فهناك حقيقة لا يختلف فيها اثنان بأن الجاحظ يعد أول من أثـــار قضية اللفظ والمعنى ، لكن إثارته لها كان من باب المفاضلة بينهما وليس البحث في العلاقة بينـــهما كما عالجها علماء اللغة حديثا أمثال دي سوسير ورولان بارت وبنفينيست وغيرهم.

إن مبدأ الفصل بين الألفاظ والمعاني قراءة شكك فيها الكثير من النقاد وعلماء اللغـــة المحـــدثين كون بعض علماء البيان والبلاغة العرب لم يعطوا التفسير الصحيح للنص الذي جاء به الجاحظ ،بل أخذوا بالمعنى السطحي له ورأوا أنه قد ركز على اللفظ وأهمل المعنى وها هو النص الذي أثار هـــذا الجدل منذ القرن الثالث الهجري إلى يومنا هذا ،يقول الجاحظ ك"والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي ،والبدوي والقروي ،وإنما الشأن في إقامة الوزن ،وتخير اللفظ ،وســـهولة المخـــرج ،وكثرة الماء ،وفي صحة الطبع وجودة السبك و إنما الشعر صناعة ،وضرب من النسيج وجنس مـــن التصوير "[1] الجاحظ في هذا النص الشائع بين أهل اللغة والأدب يتحدث عن أن الألفاظ ليس لها أي معنى حينما تكون منفردة ،بل تكتسب معنى وقيمة داخل السياق أو البناء اللغوي الذي ترد فيه [2]

ولا ننسى أن الظروف التي قيل فيها النص السابق لم تكن بمنأى عن الرد على الشعوبية ،فهـــي أحد البواعث التي جعلت الرجل يؤلف من أجل دحض أكاذيب و أقاويل هؤلاء الشعوبيين الـــذين طعنوا في عبقرية اللسان العربي الذي يتجلى-ربما- في اللفظ دون المعنى ،ولذا أطلق الجاحظ العنان و أكثر الاهتمام باللفظ حتى عد من أنصاره .

أما من جهة ثانية كما قال المرحوم محمد الصغير بناني ليس ما قاله الجاحظ تناقضا أو تهافتا بل إن ما يقصده بمفهوم الطرح في الطريق للمعاني أو الألفاظ على حد السواء ،هو الحالة الـــتي تكـــون عليها قبل تركيبها وتنظيمها في جمل للتفاهم ،فما يقابل المعاني المطروحة في هذه النظريـــة ليســـت الألفاظ لأنها هي الأخرى معنية بالطرح والسقوط كقوائم في المعجمات ،فهي مبثوثة هنـــا وهنـــاك تنتظر تركيبها وصوغها في جمل مفيدة صالحة للتخاطب والتواصل ،وإنما ما يقابلها السبك والنســـج والتصوير ،إنه التركيب بكل بساطة ،وهو يتطابق مع تعريف اللغة في فهم اللسانيات الحديثة [3].

---

1) - الحيوان ،ج3 ص ص 131-132.

2) - ينظر : عبد العزيز حمودة ،المرايا المقعرة ،مطابع الوطن –الكويت ،2001م،ص 274 .

3) - ينظر: النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية ،ص ص 142-143.

كما تجدر الإشارة إلى أن الجاحظ لا يقصر المعنى على الأفكار التي تظهر في النفس (الذهن)فهناك الصور التي تتولد في المخيلة و المشاعر التي تختلج في الصدور دون نسيان الحاجات والميول التي تجيش في النفس ويظهر هذا المعنى في قوله :"المعاني القائمة في صدور الناس ،المتصورة في أذهانهم والمختلجة في نفوسهم والمتصلة بخواطرهم ،والحادثة عن فكرهم ،مستورة خفية ،وبعيدة وحشية ومحجوبة مكنونة ... "[1]

فالمعاني عند الجاحظ تتصف بعدة خصائص وميزات أساسية يمكننا أن نجملها فيما يلي:

-المعاني خفية مستورة –غائبة عن العيان – في قلب الإنسان أو في عقله فهي "مستورة خفية ،وبعيدة وحشية ،ومحجوبة مكنونة ،وموجودة في معنى معدومةٍ... "[2]

-المعنى الذي يقصد إليه المتكلم مجهول من جهة المتلقي " لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ولا حاجة أخيه وخليطه ،ولا معنى شريكه و المعاون له على أموره ،وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره ... "[3]

-المعاني تحيا بالاستعمال-التلفظ بها-و بالتالي تتحول من البعد إلى القرب ومن غائب إلى شاهد حاضر "و إنما يحي تلك المعاني ذكرهم لها ،و إخبارهم عنها ،واستعمالهم إياها. وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم وتجليها للعقل، وتجعل الخفي منها ظاهرا و الغائب شاهدا و البعيد قريبا ... "[4]

-احتياج المعاني إلى وضوح الدلالة وصواب الإشارة "وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة وحسن الاختصار ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى ،وكلما كانت الدلالة أوضح و أفصح كانت الإشارة أبين وأنور ،كان أنفع وأنجع ... "[5]

– المعاني تختلف عن الألفاظ ووسائل التعبير الأخرى ،كونها مبسوطة إلى غير نهاية وممتدة إلى غير غاية ،أما الألفاظ فهي محدودة معدودة "ثم اعلم حفظك الله أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية ،وممتدة إلى غير نهاية وأسماء المعاني –الألفاظ –مقصورة معدودة ومحصلة محدودة "[6]

---

1)- البيان والتبيين ،ج1 ،ص 75

2) - نفسه .

3) - نفسه.

4)- نفسه.

5)- نفسه.

6) - نفسه،ص 76 .

غير أن المتأمل في النص السابق الذي قال فيه الجاحظ بأن المعاني مطروحة في الطريق ألا يمكننا القول أنه يقصد بذلك البنية التحتية الحاملة للمعنى التي توصل إليها نوام تشو مسكي، كون المعنى موجودا عند كل المخلوقات البشرية على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية و قدراتهم العقلية ،كما أنه يؤكد بأن التمثيل المجرد –البنية العميقة –هو ظاهرة مشتركة بين جميع البشر عامة في جميع اللغات الإنسانية لكونه انعكاسا مباشرا للتفكير[1]

أما الجاحظ حينما يقول:"إن الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ ،وسهولة المخرج وكثرة الماء ،وفي صحة الطبع وجودة السبك.... "[2]فهو يقترب من البنية السطحية التي قال بها نوام تشومسكي ،على أساس أن التباين والاختلاف بين الأشخاص يكون على مستوى هذه البنية السطحية ،فتكون متباينة بتباين اللغات وتنوعها وحتى بين أفراد الأمة الواحدة [3]

لم يكن صاحب البيان والتبيين كما رأينا متعصبا للمعنى على حساب اللفظ أو للفظ على حساب المعنى بل وجدناه في نصوص كثيرة ، حاول أن يبيين أن أفضل الكلام ما جمع بين لفظ حسن ومعنى جميل ،فهي دعوة للفظ كما هي دعوة أخرى للاهتمام بالمعنى لأن المعنى إذا اكتسى لفظا متخيرا زاده حسنا وجمالا يقول في ذلك :"فإن المعنى إذا اكتسى لفظا حسنا ،و أعاره البليغ مخرجا سهلا ،ومنحه المتكلم دلا متعشقا ،صار في قلبك أحلى ولصدرك أملا ،و المعاني إذا كسيت الألفاظ الكريمة وألبست الأوصاف الرفيعة تحولت في العيون عن مقادير صورها ،و أربت على حقائق أقدارها بقدر ما زينت وعلى حسب ما زخرفت ،فقد صارت الألفاظ في معاني المعارض ،وصارت المعاني في معنى الجواري ... "[4] لقد شبه أبو عثمان المعاني بالجواري ،فهي تزداد حسنا وجمالا بحسب بحسب ما تلبسه من زينة حتى تكاد تبتعد عن حقائقها ،إنه اهتمام بالشكل ولكن ليس على حساب المعنى بل نصه فيه دعوة إلى الموازنة بينهما.

ويذكر الجاحظ أن ثمامة بن الأشرس كان ممن يوازن بين اللفظ والمعنى ،حتى يحدث بينهما نوع من المشاكلة ،فوصفت معانيه بأنها ظاهرة في ألفاظه وواضحة في مخارج حروفه يقول الجاحظ :"وما علمت أنه كان في زمانه قروي ولا بلدي كان بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف ولا من

---

1)- ينظر :شفيقة العلوي ،محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة ،أبحاث للترجمة والنشر والتوزيع ،ط1ن2004م،ص ص 54-55

2) - الحيوان ،ج3،ص ص 131-132

3)- ينظر:محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة ،ص 55

4) - البيان والتبيين ،ج1، ص254 .

سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ،ما كان بلغه ،وكان لفظه في وزن إشارته ،ومعناه في طبقة لفظه ،ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك "[1] ويقول أيضا "وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه في ظاهر لفظه ،وكان الله عزوجل ألبسه من الجلالة وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه "[2]

إن الجاحظ يرى أن أصل العلاقة بين اللفظ والمعنى هي المطابقة التامة الدالة على معنى فيحدث بينهما نوع من التسابق فلا يكون اللفظ إلى سمعك أسبق من المعنى إلى قلبك يقول :"وقال بعضهم وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوناه :-لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه ،فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك "[3]

يعد ابن جني من أولئك الذين ردوا على من زعموا أن العرب تتعصب للألفاظ وصنعتها وتهمل المعنى حيث أفرد لذلك بابا سماه:"باب في الرد على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعاني "وهو باب من أشرف فصول العربية عنده .

وقد دافع فيه عن العرب ،وقال بأنهم لم ينحازوا إلى اللفظ دون المعنى ،ولكن عنيتهم باللفظ كونه حاملا المعنى إلى المتلقي "فكأن العرب إنما تحلى ألفاظها ،وتدبجها وتشيدها ،وتزخرفها ،عناية بالمعاني التي وراءها ،وتوصلا بها إلى إدراك مطالبها ،وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"إن من الشعر لحكما و إن من البيان لسحرا "فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتقد هذا في ألفاظ هؤلاء القوم ،التي جعلت مصايد وإشراكا للقلوب ،وسببا وسلما إلى تحصيل المطلوب ،عرف بذلك أن الألفاظ خدم للمعاني والمخدوم —لاشك-أشرف من الخادم " [4].

ومن خلال ما تقدم يبدو أن المعاني لا تشكل هاجسا في نفس صاحبها ،لأنها واضحة في نفسه ،فهي كما يراها الجاحظ مشتركة بين طبقات الناس ،إلا أن الصعوبة تكمن في البناء الذي يخرج هذه المعاني إلى عين الناظر- المتلقي —وحتى يعي جيدا المتلقي ما يحمله اللفظ من المعاني، وعلى المتكلم أن يهتم به أيما اهتمام فيخرج في ثوب جميل يسهل على عقل المتلقي فهمه .

---

1) - البيان والتبيين، ج 1،ص 111.

2)- نفسه ،ج1،ص 83 .

3)- نفسه، ج 1 ،ص115 ،للتوسع ينظر أيضا : ج 2 ،ص ص 7-8 .

4)- الخصائص ،ج1، ص195.

ثالثا–علاقة العلامة اللغوية بمفهوم النظام

إن العلامة اللغوية تعتبر من أهم الأدوات الإجرائية التي يستعملها المتكلم من أجل إيصال رسالة ما إلى المتلقي ،لأن النظام اللغوي هو عبارة عن شبكة من العلاقات وهذه العلاقات تكون بين مجموعة من العلامات التي تنتظم وتر تصف أفقيا أو عموديا في تجاور حينا وتراكيب حينا آخر تأسست منضدة متكاتفة [1] حيث يكون هناك تفاعل وانسجام بين الوحدات اللسانية المكونة لتركيب العملية الابلاغية على أحسن وجه ،فهذه الصفة تعطينا شبكة تكون وفق ترتيب وتنظيم خاص تقوم عليه الظاهرة اللغوية ،مما يتيح للباحث اللساني الوصول على مقومات الانتظام الداخلي عبر اكتشاف القوانين المحددة لبنية اللغة والمحركة لوظيفتها في آن واحد[2].

فاللغة كما يقول عبد السلام المسدي :"جملة رموز متواترة بين أفراد المجموعة البشرية التي تتحول بفعل الرابط اللغوي إلى مجموعة فكرية حضارية ،وهذه الرموز سواء أكانت ملهمة إلهاما أو منبثقة انبثاقا ،فإنها تمثل ضربا من التسليم الضمني بين مستعمليها ،ثم إنها ترتبط فيما بينها بقوانين ،وبفضل هذه القوانين تنصهر الرموز الجزئية في شبكة من القواعد المجسمة لبناء اللغة الكلي "[3] .

إلا أن الاهتمام بمفهوم بالنظام لم يكن بمنأى عن الدراسات اللغوية القديمة مثل السنسكريتية ،حيث وصفوا أولى الأسس للدراسة العلمية بخصوص اللغة أو بما يسمى بالدراسة العلمية للسان البشري ،كما تجدر الإشارة إلى أن فكرهم كان مسبوغا بالفلسفة و مزخرفا بالنزعة العلمية ،ومع ذلك انتبهوا إلى خصوصية اللغة وتغيرها ،فخلصوا إلى رد هذا التغيير الملحق باللغة عائد إلى علة وضرورة داخلية[4] ،هذه العلة التي تنبه إليها هؤلاء السنسكريتيون ،أشار إليها دي سوسير بمفهوم النظام ،فاللغة بمجملها تخضع بشكل أو بآخر لنظام لغوي معين ،فالنظام يعتبر من أهم المفاهيم السيميائية التي يقوم عليها ،ومما لاشك فيه أنه يمثل الإطار الشكلي والنظري الذي يمكن من خلاله وصف العلاقات التي تربين العلامات المفردة وتركيباتها التي ترد فيها [5] إلا أن علماء اللغة لم تتوحد رؤاهم حول هذا المفهوم بل اختلفت الرؤى وتعددت.

---

1) - ينظر :اللسانيات وأسسها المعرفية ،ص 33 .

2)- ينظر:اللسانيات و أسسها المعرفية، ص 30.

3)- نفسه .

4)- ينظر:عبد الجليل مرتاض ،التحولات الجديدة للسانيات التاريخية ،مطبعة دار هومة ،الجزائر ،2001م،ص 100

5)- ينظر :سيزا قاسم ،نصر حامد أبو زيد ،مدخل إلى السيميوطيقة [مقال]حول بعض المفاهيم والأبعاد تر:سيزا قاسم ،ج1،ص38

والمتتبع لهذا المفهوم (النظام) في الدراسات اللغوية يلاحظ أنه ظهرت عليه تطورات من فتـــرة إلى أخرى إذ أشار إليه اللسانيون التاريخيون إشارة عابرة لم تكن مبنية على أسس نظرية و علمية إلى أن جاء دي سوسير فأحسن طرحه وتوضيحه وشرحه ،ولما جاء علماء اللغة المعاصرين استفادوا ممـــا جاء به دي سوسير فطوروا مفهوم النظام حتى غدا شاملا للغة والكلام بعد أن كان مقتصرا اللغـــة فحسب .

يرى دي سوسير أن اللغة هي مجموع العلاقات الترابطية التناسقية المستقرة في أدمغة المـــتكلمين باللغة الواحدة[1].فدي سوسير يرى أن اللغة عبارة عن مخزون ذهني يوجد في أدمغة أبناء المجتمع الواحد على شكل علاقات ترابطية يحكمها نظام أو نسق معين .

ليس بالأمر الغريب أن نجد الجاحظ يقترب من هذا المفهوم إذ يرى أن اللغة أيضا عبارة عـــن مخزون ذهني خفي محجوب إنما الذي يجلي تلك المعاني استعمال الناس إياها يقول الجـــاحظ :"قـــال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني :المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم ،و المتخلجة في نفوسهم والمتصلة بخواطرهم ،و الحادثة عن فكرهم مستورة خفية ، وبعيدة وحشية ، ومحجوبـــة مكنونة ،وموجودة في معنى معدومة .لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ولا حاجة أخيه و خليطـــه ولا معنى شريكه ،و المعاون له على أموره وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره.وإنما يحي تلـــك المعاني ذكرهم لها ،وإخبارهم عنها و استعمالهم إياها ،وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم وتجليها للعقل ،وتجعل الخفي ظاهرا والغائب شاهدا والبعيد قريبا... " [2].

إن الجاحظ في نصه هذا يقدم لنا نظرية اتصال لغوية قام فيها بتعريف الرسالة والمرســـل إليـــه والمستقبل والشفرة ،فالرسالة هي "المعاني القائمة في صدور العباد"أما المرسل "فهم العباد "الذي أشار إليه الجاحظ بالفرد أو الإنسان في عزلته ويطلب الاتصال أما المستقبل أو المتلقي فهو الإنسان الآخـــر في عزلته "الذي لا يعرف ضمير صاحبه ولا حاجة أخيه و خليطه ..."أما الشفرة فهي اللغة التي بهـــا تحيا المعاني الخافية في صدر المرسل [3]

فهذه العناصر تعبر بصدق عن عناصر العملية الاتصالية للغة باعتبارها أصواتا يستعملها الإنسان للتعبير عن أغراضه ومقاصده و حاجاته اليومية ،وهذا ما ذهب إليه أيضا ابن جني في الخصـــائص في

---

1) -ينظر:عبد الله الغذامي،الخطيئة والتكفير (من البنيوية إلى التشريحية)،النادي الأدبي الثقافي،1987م،ص30

2) - البيان والتبيين، ج1،ص 75.

3) - ينظر:المرايا المقعرة ،ص 223 .

باب القول على اللغة وما هي "أما حدها ،فإنها أصوات يعبر بها كـــل قـــوم عـــن أغراضـــهم " [1]

هناك من يعرف اللغة بأنها نظام من الرموز الصوتية الاختيارية يتواصل بواسطتها أفراد مجتمع ما من المجتمعات ،كون اللغة –في كل مجتمع– نظاما عاما يشترك أفراده في إتباعه واتخاذه أساسا للتعبير عما يجول بخواطرهم لأجل التفاهم مع بعضهم بعضا [2] فإدوارد سابير يرى أن اللغة"طريقة أساســـية مكتسبة لتوصيل الأفكار و الانفعالات و الرغبات عن طريق نظام معين من الرموز اختاره المجتمـــع وتعارفوا عليه " [3] وهكذا يظهر لنا أن اللغة ظاهرة اجتماعية وجدت للتخاطب والتواصل ،فها هـــو الجاحظ يشير إلى ذلك إذ يعتبرها إحدى أهم وسائل الاتصال فهو يرى أن ما هو مكنون في صدور الناس يظهر على السطح عن طريق الاستعمال :"...و إنما يحي تلك المعاني ذكرهم لها و إخبـــارهم عنها و استعمالهم إياها ..."

لابد أن نعود لنذكر بأن عناصر العملية الاتصالية التي تكلم عنها الجاحظ تقترب في مجملها من نظرة رومان جاكسون الذي يرى أن التواصل لا يتحقق إلا بتوفر مجموعة من العوامل جاءت علـــى النحو التالي :

1-إنسان مرسل destinateur

2-إنسان ملتقط destinataire

3-إقامة الاتصال بين المرسل و الملتقط la contexe

4-لغة مشتركة يتكلمها المرسل والملتقط معا code

5-مرسلة لغوية mesage

6-محتوى لغوي ترمز إليه المرسلة contexte

ويمكننا أن نقدم عملية التواصل على الشكل البياني الآتي :

المحتوى

مرسل..... ..... مرسلة .....ملتقط

اتصال للغة

---

1)ا-بن جني أبو الفتح عثمان ،الخصائص ،تح:عبد الحكيم بن محمد المكتبة التوقيفية ،1418هـــ ، ج1 ،ص 44 .

2) - ينظر : عطية سليمان أحمد،الجاحظ والدراسات اللغوية ،مكتبة زهراء الشرق ،1994م،ص 31 .

3) – إسماعيل مغولي[مقال]اللغة ودورها في عملية الاتصال – مجلة الآداب واللغات ،قسم اللغة العربية و آدابها ،جامعة الأغواط،العدد02 2004م ص122

لقد أدرك الجاحظ أن هذه اللغة التي يستعملها المتخاطبين ،تحتاج إلى نظام داخلي يضبط هـــذه العلامات المكونة للكلام سواء كانت مفردا أو مركبا،فهو لوح في أكثر من موضع إلى نظامية اللغـــة ،باعتبار أن لها نظاما داخليا يسير وفقه المتكلم . يقول الجاحظ في الجزء الأول من البيـــان والتبـــيين "والصوت هو آلة اللفظ ،و الجوهر الذي يقوم به التقطيع ،وبه يوجد التأليف ،ولن تكون حركـــات اللسان لفظا ولا كلاما موزونا ولا منثورا إلا بظهور الصوت ،ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع و التأليف .." [1] إنه يرى أن الدلالة اللفظية لا يمكن أن تتحقق إلا إذا كانت هناك علامات صـــوتية تكون على تأليف و نظام معين ،فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن يتحقق الـــتلفظ إذا لم يظهـــر الصوت .

وفي ظل ما تقدم ها هو نص للجاحظ يتحدث فيه عن مفهوم النظام و الـــدور الـــذي تلعبـــه الوحدات اللغوية في الدورة الكلامية عند تأليفها وتنضيدها ،حيث إذا لم تقع اللفظـــة في موقعهـــا الخاص بها اختل النظام ،وبالتالي لم يفهم المعنى يقول في ذلك:"...وتجد اللفظ لم تقـــع موقعهـــا و لم تصر إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسوم لها ،و القافية لم تحل في مركزهـــا وفي نصـــابها ،و لم تتصل بشكلها وكانت قلقة في مكانها ، نافرة من موضعها ، فلا تكرها على اغتصـــاب الأمـــاكن والنزول في غير أوطانها ، فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ، و لم تتكلف اختيار الكلام المنثور لم يعبك بنزلك ذلك أحد... " [2]

يمكن القول بأن الجاحظ كان عارفا بفكرة النظام الذي تسير عليه اللغة انطلاقا من الوحـــدات اللغوية إذ أي إخلال بالنظام يؤدي إلى تنافر و اضطراب بين الكلمات المستعملة ،بحيث أن النظام هو الذي يفرض على الوحدة اللغوية مكانها اللائق بها ،أما إذا وضعت في غير مكانها نفرت من جاراتها " فلا تكرها على اغتصاب الأماكن و النزول في غير أوطانها "

كما أن الجاحظ في نصه السابق يضع بعض القيود تسمح للشاعر أو الناثر من تنظـــيم الكـــلام وتأليفه ، وحتى يبلغا هذا عليهما أن على درجة عالية من الفصاحة (فصاحة المتكلم)،وهـــي صـــفة راسخة ومتمكنة في نفس المتكلم تعطيه القدرة على التعبير ،وحسن تأليف الكلام ونظمه ،عما يجول في خاطره من الأغراض والمقاصد ،ولن يبلغ شاعر أو ناثر هذه المنزلة إلا إذا كان ملما باللغة ،كـــثير

---

1) - البيان والتبيين ،ج1 ،ص 79.

2) - نفسه ،ص 138 .

الإطلاع على كتب الأدب ،عارفا بأسرار أساليب العرب كما يكون حافظا لعيون كلامهم من شعر جيد ونثر مختار عالما بأحوال الشعراء و الخطباء [1]

وما يلفت الانتباه إلى أن أبا عثمان أكد على أن العلامة اللغوية إذا لم تقع في موضعها أحدثت تنافرا بين الوحدات اللغوية ،بالإضافة إلى استثقال اللسان لها حيث يجد مؤونة ومشقة عند النطق بها "لأنه إذا كان الشعر مستكرها ،وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات ،وإذا كانت الكلمة (العلامة اللغوية)ليس موقعها إلى جنب أختها مرضيا موافقا ،كان على اللسان عن إنشاد ذلك الشعر مؤونة" [2]

أما إذا كانت الوحدات اللغوية متفقة، واقعة في موضعها إلى جنب أختها ، سهلة المخارج ليس بينها شيء من التنافر حتى تغدو الكلمة عبارة عن حرف واحد و البيت من الشعر بكامله عبارة عن كلمة واحدة "فأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء ،سهل المخارج ،فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا واحدا ،وسبك سبكا واحدا ،فهو يجري (الشعر)على اللسان كما يجري الدهان ،وكذلك حروف الكلام و أجزاء البيت من الشعر تراها متفقة ملسا ولينة المعاطف سهلة و تراها مختلفة متباينة ،و متنافرة مستكرهة تشق على اللسان وتكده و الأخرى تراها سهلة لينة ورطبة مواتية سلسة النظام خفيفة على اللسان ،حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد "[3].

في النص شيء يدعو إلى التوقف ،وهو قول الجاحظ "أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغا واحدا ،وسبك سبكا واحدا ...."فقد شبه الكلام المنظوم بسبك المعادن و إفراغها و تشكيلها وفق تجانس وحدات المادة المعدنية المسبوكة ،وحسب تشكيل الصانع لها طبعا في قالب أراده لها ،أما في الكلام يعني دقة ربط أجزائه وفق ما يتطلبه التركيب اللغوي من نحو وإعراب ،فالسبك عنده يكون بين الحروف أولا ثم بين الكلمات ،ثم بين الجمل،هذا يؤدي إلى تآلف وتجانس بين الوحدات اللغوية ،وبالتالي يسهل على اللسان النطق بذلك ،وهذا يحقق نوعا من الانسجام بين المتكلم و المتلقي "فإذا كان المعنى شريفا (غير ساقط)واللفظ بليغا،وكان صحيح الطبع بعيدا عن الاستكراه ،و مترها عن الاختلال مصونا عن التكلف ،صنع في القلوب صنيع

---

1) - ينظر:أحمد مصطفى المراغي ،علوم البلاغة ،دار الكتب العلمية ،بيروت –لبنان ،ط4، 2002م،ص ص 34-35.

2) - البيان والتبيين ،ج1،ص 76 .

3) –نفسه،ج1،ص76 .

الغيث في التربة الكريمة" [1] وبذلك نجد أن السبك يبني حسن الصياغة و إحكام النظم و صحته على وفق قوانين و قواعد اللغة.

والكلام حتى تتوفر فيه صفة النظام لابد أن يكون سلسا خفيفا على اللسان، فهو ليس مجرد رصف أو جمع لكلمات ،فعلى المخاطب أن يتدرب و يتمرن على ذلك جيدا حتى يستطيع تنظيم الكلام و تأليفه "و الإنسان بالتعلم والتكلف ،وبطول الاختلاف إلى العلماء ،ومدارسة كتب الحكماء ،يجود لفظه و يحسن أدبه ،وهو لا يحتاج في الجهل إلى أكثر من ترك التخير..." [2].

هذا يعني أن هذه الوحدات اللغوية تتآلف حسب مجموعة العلاقات من أجل تحقيق مجموعة من الوظائف وفي هذا تقول جان مارتيني(j.martinet)معرفة مفهوم النظام في إطاره السيميائي العام "لا يعني نظام ما مجرد جمع للعناصر ،إنما النظام هو وجود مجموعة من الوحدات تربط فيما بينها مجموعة من العلاقات من أجل أداء مجموعة من الوظائف " [3]وعليه تقيم العلامات اللغوية فيما بينها علاقات فتتعرف كل علامة أو وحدة لغوية على الوحدات الأخرى التي تشترك معها في تركيب ما وبناء على ذلك فإن أي وصف دقيق للغة يستلزم منا الاعتماد على بيان العلاقات بين هذه الوحدات اللغوية [4]

إذن إن النظام يمكننا اعتباره مجموع من الوحدات التي تقوم بينها مجموعة منة العلاقات تربط بعضها ببعض ،فإن أي تغيير لأحد هذه الناصر ينجر عنه تغيير في النظام كله[5]

كما أن النظام هو الصياغة النهائية للوحدات اللغوية التي تمنح المنظومة الكلامية قيمتها الدلالية ،في إطار بما يسمى بعلاقات الاختلاف و التقابل بين وحداتها ،وهذا يؤكد أن العلامة ليس لها قيمة (قيمة)إذا لم تكن مع بقية الوحدات أو العلامات التي تكون لنا نسقا أو نظاما بين هذه الوحدة والوحدات الأخرى المجاورة لها .

يبدو أن الجاحظ كان على وعي بالدور الوظيفي الذي يلعبه النظام اتجاه وحداته اللغوية وهذا يظهر حينما يؤكد في أكثر من موضع من البيان والتبيين إلى أن اختيار الألفاظ وتركيباتها لابد

---

1)- البيان والتبيين ،ج1 ،ص 83 .

2) – نفسه ،ج1،ص 86.هناك نصوص أخرى للجاحظ لنفس المعنى ،مثلا: ج1 ،ص 44-ج3 ،ص 14..

3)-A.martinet.clefs pour la semiologiem,edts seghers,1973 p/109-101

4) - ينظر:ذهبية حمو الحاج ،لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب ،دائرة الأمل للطباعة والنشر و التوزيع ،2005م،ص 44.

5) - ينظر : نفسه ،ص 53.

أن يؤول في نهاية المطاف إلى نظم(texture) مسبوك ومؤتلف موافق لقواعد النظام وبقواعد الإجبار التي تفرضها علاقات التأليف لان الكلمات السابقة تفرض ظروفها على اللاحقة فتقرر ما يناسبها و تبعد ما يتنافر معها [1]..

الجدير بالتنويه والتذكير أن الجاحظ يعتبر أول من تنبه إلى فكرة النظم في مؤلفه الموسوم بـ:نظم القرآن إذ اعتبر إعجاز القرآن يعود أساسا إلى النظم ،كما يؤكد أن الإعجاز القرآني لا يفسر إلا في ظل بما يعرف بالنظم ،لأنه يرى أن النظم هو الوحيد الذي له الأحقية في رفع الآيات إلى مستوى الإعجاز ،لان المعاني –ربما– قدر مشترك و ألفاظ القرآن قد تكون معروفة متناثرة ،لكن إعجازها و إتيانها منظومة الشيء الخاص .

فالجاحظ رفض فكرة أستاذه النظام الذي قال بأن البشر بإمكانهم الإتيان بكلام يضاهي القرآن لكن الله صرفهم عن ذلك ،و سمى مذهبه هذا بالصرفة حيث تصدى لها –كما قلت سلفا. [2]

وها هو النص الذي يحمل فكرة نظم القرآن التي جاء بها الجاحظ وكيف يفرق بين كلام البشر من شعر ونثر و بين القرآن الكريم ،كما أكد فيه أن القرآن إعجازه ينجلي لنا في نظمه يقول:"ولا بد أن نذكر فيه أقسام تأليف جمع الكلام ،وكيف خالف القرآن الكلام الموزون و المنثور و هو منثور غير مقفى على مخارج الأشعار ، الأسجاع وكيف صار نظمه من أعظم البرهان و تأليفه من أكبر الحجج " [3].

يعتبر الجاحظ من أولئك الأوائل الذين استخدموا كلمة نظم [4] كمصطلح يدل على تأليف الكلام و صياغته، و قال بأن القرآن يستعمل اللفظ في المكان المناسب واللائق به ولا يضع لفظا مكان آخر وإن تقاربا في المعنى يقول :"و قد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها و غيرها أحق بذلك منها ،ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع و العجز الظاهر .و الناس لا يذكرون السغب و يذكرون الجوع في حالة القدرة و السلامة .

---

1) - ينظر:الخطيئة و التكفير ،ص40 .

2) - ينظر :صالح بالعيد ،نظرية النظم ،دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع ،الجزائر ،2001م، ص ص 122-123 .

3) - البيان والتبيين ،ج1، ص 383.

4)- النظم لغة :جاء بمعنى الجمع والضم و النظام والربط والتأليف ،والذي يراد به ضم الكلمات المتخيرة على الوجه الذي يقتضيه المنطق وفي لسان العرب هو:التأليف نظمه ينظمه نظما ونظاما ونظمه فانتظم ،ونظمت اللؤلؤ أي جمعته في السلك والتنظيم مثله ومنه نظمت الشعر ونظمه ونظم الأمر على المثل ،وكل شيء قرينة بآخر أو ضممت بعضه إلى بعض فقد نظمته والنظم :المنظوم وصف بالمصدر و النظم ما نظمته من لؤلؤ وخرز وغيرهما.(لسان العرب مادة نظم)

وكذلك ذكر المطر ؛لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام . والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث.ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع ،إذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين . ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين ،ولا السمع أسماعا والجاري على أفواه العامة غير ذلك ، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر و أولى بالاستعمال..." [1]

من خلال ما سبق هناك ما يوحي بأن الجاحظ قد مهد الطريق لعبد القاهر الجرجاني باعتباره العالم اللغوي الأبرز الذي قام بتطوير نظرية النظم [2] حتى غدت نظرية لها صيتها عند اللغويين والبلاغيين والنقاد وما هي إلى عملية ذهنية عقلية يتوخى فيها المتكلم معاني النحو وأحكامه لأن الوجه الواحد أو المعنى النحوي الواحد ينقسم بدوره إلى عدة أقسام ووجوه فمثلا الخبر قد يرد على عدة أحوال بحيث يكون مفردا أو جملة (اسمية أو فعلية) أو شبه جملة ، وقد يكون مذكورا أو محذوفا أو معرفا أو منكرا ، كما أنه قد يتأخر أو يتقدم على المبتدأ وكلها وجوه يجري عليها هذا الباب النحوي ،والناظم أو المؤلف في هذا الحال عليه أن يتخير البديل الأمثل أو الوجه الأصلح للتعبير بدقة عما يريد إبلاغ السامع به .

وشرط النظم لهذه الوجوه أو المعاني النحوية (الأبواب النحوية)أن يكون المتكلم أو الناظم عارفا بها متمرسا عليها يقول عبد القاهر :"أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب –من أبواب النحو –وفروقه فينظر إلى الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك ،زيد منطلق ،وزيد ينطلق ،وينطلق زيد ،ومنطلق زيد ...فيضع كلا من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي " [3]

فالصواب والخطأ اللذان يوصف بهما نظم الكلام يرجعان في حقيقة الأمر إلى توخي الناظم من معاني النحو فأصاب به موضعه أو عامله بخلاف هذه المعاملة ،فأزاله عن موضعه واستعمله في غير ما ينبغي . [4]

---

1) – البيان والتبيين ، ج1،ص20

2)- ينظر :نظرية النظم ،ص125 وما بعدها .

3) – دلائل الإعجاز ،ص ص 64-65. للإطلاع أكثر ينظر أيضا:قواعد النحو العربي ،في ضوء نظرية النظم ،دار وائل ،للنشر والتوزيع ،ط1،2003م،ص 12 وما بعدها

4)– الدلائل ،ص 65.

هناك نصوص عديدة تثبت أن الجاحظ، قد كان من السباقين إلى اكتشاف الدور الكبير الـــذي يلعبه النحو وأبوابه في تنظيم الكلام و سبكه سواء كـــان موزونـــا أو منثـــورا يقـــول الجـــاحظ :"...ويقولون أصاب الهدف إذا أصاب الحق في الجملة ... فالجملة[1] لا تبنى من فراغ بـــل تتطلـــب معرفة بالنحو وأبوابه ويقول في نص آخر يلمح في إلى وجوب التمييز بين المعاني النحويـــة :"...وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة وإلى ترتيب و رياضة إلى تمام الآلة و إحكام الصنعة..." [2] ويقـــول في نص آخر :"و لأهل المدينة ألسن ذلقة و ألفاظ حسنة ،وعبارة جيدة ،واللحن في عوامهم فاش وعلى من لم ينظر في النحو منهم غالب " [3].فهو في هذا النص يركز على أواخر الكلم و الدور الذي تلعبه الحركات الإعرابية باعتبارها سمات دالة .

رابعا–العلامة اللغوية من خلال العلاقات الاستبدالية والتركيبية :

إن اللغة كنظام لها مجموعة من الآليات التي تعمل بها ،فنظامها ليس كما يعتقد الـــبعض مجـــرد إصدار مجموعة من الأصوات ،بل إن هذه الوحدات الصوتية تعمل وفق نظام غاية في الدقة وهذا ما كشف عنه ديسوسير إذ اعتبر اللغة مؤسسة اجتماعية تحكمها أعراف وقوانين محددة ،فلو لا هـــذه القوانين التي تتحكم في بنيتها ما تميزت بالخاصية الدلالية التي ليست شيئا خارجا عن الإشـــارة – العلامة –، إنما تتولد –الدلالة–من علاقة العلامات اللغوية بعضها مع بعـــض في تركيـــب الجملـــة ،فالدلالة اللغوية لن تتم إلا في إطار وجود الإشارات داخل نظام معين وإتباع العلامات أو الوحدات اللغوية نحوا محددا [4]

فمفهوم النظام كما قلت سلفا له مجموعة من الآليات[5] التي يعمل بها ،ومن بين هذه الآليات العلاقات الاستبدالية والتركيبية ،هذه الآلية التي انتبه لها دي سوسير ، هي عبارة عن محورين أساسين

---

1) للإطلاع أكثر على الجملة وما دار حولها من أراء ينظر: عبد المجيد عيساني [مقال]الجملة في النظام اللغوي عند العرب، مجلة الأثر ،كلية الآداب و العلوم الإنسانية ،جامعة ورقلة ،العدد05 ،2006م،د/ ،ص91

2)- البيان والتبيين ،ج ص14 .

3)- البيان والتبيين ،ج146 .

4) - ينظر :ميجان الرويلي –سعد البازعي،دليل الناقد الأدبي ،إضاءة لأكثر من خمسين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا ،المركز الثقافي العربي ،بـــيروت ،لبنان ،ط2 ،2000،ص 34

5)- الآليات التي يعمل بها النظام عند دي سوسير :التقابل : يقول دي سوسير في ذلك :-إن كل علامتين تشمل كل منهما على دال ومدلول ليس مختلفين إنهما متمايزتان فحسب وليس بينهما غير التقابل –للتوسع أكثر ينظر :محاضرات في الألسنية العامة ص 164.فلا يمكن إقرار وحدة لغوية إلا بوجود وحدة تقابلها داخل النظام ،ينظر: مبادئ في اللسانيات العامة ،دار القصبة للنشر ،ط1 ،2001م ،ص 85.التمايز :تظهر هذه الآلية عندما نقوم بمقابلة بين وحدة وأخرى،أما.التشابه والاختلاف :يقول دي سوسير في ذلك :-تعمل الآلية اللغوية بمجملها وفقا للتشابه والاختلاف ،للتوسع

يقوم عليهما مبدأ العلاقة بين العلامات –كوحدات دالة في النظام إذ تبرز أهمية هذين المحورين كونهما يمثلان الجانب الإجرائي الذي يعمل فيه النظام ، بحيث تتجلى آلية التشابه والاختلاف بين الوحدات اللغوية ، وتظهر قيمة العلامات ،لان محصلة الوصف اللغوي في إطار هذه العلاقات هي القيمة[1] فحركية وفاعلية الوحدات اللغوية تتجلى لنا من خلال هذين المحورين باعتبارهما من أهم الآليات التي يعمل بها النظام .

إن العلاقات التركيبية علاقات مبنية على صفة الخطية والتي مفادها أنه لا يمكن للمتكلم النطق أو التلفظ بعنصرين في آن واحد ،وهذان العنصران إنما يقع الواحد منهما إلى جانب الآخر ،إنها علاقات توجد بين وحدات تنتمي إلى مستوى واحد ،و تكون متقاربة ضمن منطوقة أوعبارة معينة أو مفردة معينة ، في سياق أفقي متدرج زمنيا تجيء كل وحدة في تتابع زمني عقب الأخرى[2]

أما العلاقات الاستبدالية إنها وحدات تدعوها وحدات الجملة ، وحدات أخرى تكون خارج السياق اللغوي يمكنها أن تحل محلها شريطة أن تؤدي وظيفة تركيبية ،فدي سوسير يعرفها بأنها" تلك العلاقات التي تتحقق وظيفتها ضمن إدراك الترابط الذهني الحاصل بين العلامة اللسانية و العلامات التي يمكن أن تحل محلها مما يمكن أن تتسم معه –خارج الخطاب –بشيء مشترك وتترابط معه في الذاكرة مشكلة مجموعات تسودها علاقات مختلفة "[3] ولهذا يتحدد معنى الكلمة –العلامة –في الجملة وعلاقاتها بما قبلها وما بعدها ، بالإضافة إلى السمات العمودية للكلمة ،وهي مجموع البدائل أو

أكثر ينظر : محاضرات في الألسنية العامة ص 132.وهما آليتان مهمتان تظهران من خلال تقابل العلامات على مستوى المحور الاستبدالي فقد يكون العنصران متشابهان صوتيا لكنهما مختلفان دلاليا مثلا:-pommeوpaume – و-fuirوfouir –ملاحظة هناك كلمات تأخذ جلالتها من السياق اللغوي الذي ترد فيه .

1)- قيمة العلامة :كما يقول دي سوسير تظهر عندما تتحد بعلاقتها بوحدات النظام الأخرى ينظر ديسوسير رائد علم اللغة الحديث كما يمكننا أن نقول أن القيمة للعلامة هي ما يمثل المعاني النسبية الخلافية التي تحدد معنى العلامة بالنسبة إلى غيرها من العلامات الأخرى التي تشترك معها في النظام نفسه فمثلا قيمة العلامة –علم–هي معناها بالنسبة إلى العلامات التي تتقابل معها استبداليا في نظام اللغة العربية ومن أبرز معانيها التقابلية :

أ- معنى التضاد مع الجهل

ب- معنى الترادف في تقابلها مع معرفة

ج- معنى الجناس في تقابلها مع الحلم

د – معنى الاسمية في تقابلها مع الفعل والحرف

هـ- معنى المصدرية من الجذر ع،ل، ،م في تقابلها مع بقية المشتقات :علم ،تعلم ،عالم ،معلم ...ينظر :من على هامش مبادئ في اللسانيات العامة ص88. – و ينظر أيضا: محمد حسن عبد العزيز ،سوسير رائد علم اللغة الحديث ،دار الفكر العربي ،القاهرة ،ط1،ص .37

2)- ينظر :سوسير رائد علم اللغة الحديث ،ص .43

3)-محاضرات في الألسنية العامةنص149

الأضداد أو المترادفات التي من شأنها أن تحل محلها ، إلا أن المفردة المختارة قامت بإزاحتها ووقع الخيار عليها بدلا من غيرها [1].

وفي ظل ما تقدم يمكننا التنويه إلى العلاقات التركيبية بأنها علاقات تتسم بالحضورية أي أن تربط وحدة لغوية بأخرى ،هي علاقات حاضرة في النظام ذاته ،أما العلاقات الاستبدالية فهي علاقات تتسم بالغيابية كونها موجودة على مستوى الذهن ،أي باعتبار ما هو مخزن في الذهن ،وهذا يعني أنها غائبة عن النظام إلا أنه يمكن استحضارها لداع من الدواعي [2].

1- العلاقات الاستبدالية relations paradigmatiques

لقد أشار الجاحظ إلى هذين المحورين مستعملا في ذلك مفهومي التأليف تارة والتخيير تارة أخرى ،وفي هذه الحال سوف نتناول هذا الأخير بمعنى العلاقات الاستبدالية التي تحدث عنها في كل مرة بمفهوم التخيير ،في نصوص عدة من البيان والتبيين ،ففي هذا المستوى يمكن أن تتجلى فيه مستويات ممثلة هذه العلاقات :

-مجموع الصيغ الصرفية المشتقة من جذر واحد

-مجموع الكلمات التي يمكن أن يعوض بعضها البعض للآخر ضمن موقع بعينه في تركيب ما .

- مجموع الاعتقادات والقيم ...والتقنيات المشتركة بين الأفراد [3]

هناك نصان للجاحظ تحدث فيهما عن التخيير ويظهر ذلك في قوله "وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ،وملحة من ملح الحشوة و الطغام ، فإياك أن تستعمل فيها الإعراب أو تتخير لها لفظا حسنا أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا ،فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ،ويخرجها من صورتها "[4] ويقول في نص آخر " رأس الخطابة الطبع وعمودها الدربة وجناحاها رواية الكلام ، وحليها الإعراب ، وبهاؤها تخير اللفظ" [5]

---

4)- ينظر : دليل الناقد الأدبي، ص 35.

2)- ينظر: سوسير رائد علم اللغة الحديث ،ص 37.

3) ينظر: مارسيل داسكال،الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة ، تر: محمد العمري،عبد الرحمن طنكول،محمد الولي،مبارك حنون،إفريقيا الشرق ،الدار البيضاء،دط، 1987م ص 83 .

3)- البيان والتبيين، ج1 ،ص146.

4)- نفسه ،ج1 ص 4

من خلال هذين النصين اللذين أوردناهم الجاحظ نجده قد استعمل مفهوم التخيير الذي كان يعني به العلاقات الاستبدالية ،فهو في النص الأول دعا إلى عدم الاختيار لنادرة من نوادر العرب لأن ذلك يفسد كنهها وجمالها ،أما في النص الثاني نجده يقر بأن رأس الخطابة يتطلب منا أن نختار لها أبهى الألفاظ وأجملها ،فيبدو أن الجاحظ كان واعيا كل الوعي بهذا المحور والدور الذي يلعبه في العملية الإبلاغية التواصلية بين المتخاطبين ،كون المتكلم يحمل كما هائلا من الوحدات اللغوية في ذهنه فعليه أن يحسن اختيار الألفاظ التي تؤدي الدلالة المراد توصيلها إلى المتلقي .

غير أن الملفت للانتباه يبدو الجاحظ يعرف جيدا الدور الذي تلعبه العلاقات الاستبدالية سواء في بناء أو هدم الكلام ، فهاهو يحذر من اختيار الألفاظ الصعبة التي تؤدي بالمتكلم إلى التعقيد،فالذي يريد أن يكون معناه سهلا مفهوما عليه أن يختار له ألفاظا كريمة ،يقول في ذلك :"...إياك والتوعر ،فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ،ويشين ألفاظك ،ومن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما ...فكن في ثلاث منازل ، أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا وفخما سهلا ..."[1]

كما أن الجاحظ يشير إلى ما يوحي بمدى أهمية الاختيار للوحدات اللسانية –دالات ومدلولات –حيث يرى أبو عثمان أن استحضارها هذه العلاقات أمر ضروري وهذا للتمييز بين صفات الكلام المترابطة في الذهن حين التعامل مع اللغة بما يسمح للسامع أو المتكلم تحقيق الدلالة على الوجه المتعارف عليه بين المتكلمين من أفراد الجماعة الواحدة .

ومنه تقرر لدى السيميائيين أن صفة الاختلاف بين العلامات يحقق بينها صفة التقابل ،و بالتالي تظهر وظيفة التقابل في تأدية الفوارق المعنوية الموجودة بين الوحدات اللسانية[2] ، فالعلامة اللغوية لا يمكن أن تستمد تميزها إلا بوجود هذا الاختلاف الموجود بينها وبين الوحدات الأخرى ،فعملية الاختيار التي دعا إليها الجاحظ لا يمكن أن تتم إلا إذا كان هناك تمايز بين الوحدات اللغوية سواء كانت هذه الوحدات دالة أو غير دالة فمثلا لو أخذنا الوحدتين (نال) و (قال) نلاحظ أن (نال)تميزت بمخرج النون الصوتي –ن– عن (قال) التي تميزت في هذه الحال بمخرج القاف–ق– [3]

---

1) –البيان و التبيين ، ج1،ص 136.

2)- ينظر:محاضرات في الألسنية العامة، ص6 .

3)- ينظر :نفسه ،ص 85.

فقد أشار الجاحظ إلى ضرورة اختيار هذه الوحدات اللغوية غير الدالة لأنها إذا اختيرت اختيارا عشوائيا ووضعت في غير موقعها الخاص بها فإن ذلك يشق على اللسان النطق بها "فإن الجيم لا تقارن الظاء والقاف ولا الطاء ولاالغين بتقديم ولا بتأخير ..."[1]

إن إنتاج معنى لغوي ما يخضع بطريقة أو بأخرى لهذه الشبكة من العلاقات باعتبارها من أهم الآليات التي يعمل بها النظام اللغوي ،فهي في نظر الجاحظ مهمة سواء كان ذلك على مستوى الدوال أو المدلولات ،فمن بين الكم الهائل المخزون في الذهن يقوم المتكلم باختيار ما يناسب المقام يقول الجاحظ:"...ولم غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه الشاهد والمثل [2]، ورأيت عامتهم –فقد طالت مشاهدتي لهم –لا يقتفون إلا الألفاظ المتخيرة ، والمعاني المنتخبة ، وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة و الدباجة الكريمة... "[3]

إن عملية التخيير إن دلت إنما تدل على الحركية التي تتصف بها اللغة ،فهذه العلاقات التداعية هي علاقات تجمع بين وحدة من وحدات اللغة حالة إخراجها في حيز لفظي مع وحدات أخرى لا تظهر هناك [4] فالعملية التنظيمية أو التصنيفية لن تتم على مستوى العلاقات التركيبية لا تتم إلا إذا سابقتها علية التخيير على مستوى العلاقات الاستبدالية ،وهذا لا يعني بأي حال من الأحوال أن العمليتين أو المحورين منفصلان أثناء الحدث الكلامي ،بل العكس من ذلك فالمتكلم لا يشعر بهيتين العلاقتين عند الكلام أو عند التواصل مع الآخرين . ها هو الجاحظ يؤكد على أهمية علاقات التخيير فشمل عنده الدوال و المدلولات بقوله :"...فكيف سقط على جميع الأمم من المعروفين بتدقيق المعاني وتخير الألفاظ وتمييز الأمور ... "[5]

انطلاقا مما ذكرناه يمكن أن نقول بأن الجاحظ كان واعيا، بأن لهذه الآلية دورا بارزا في بناء وتوضيح الدلالة اللغوية على أساس المقابلة بين المعاني المختلفة التي يجب على المرسل أن يدقق فيها النظر جيدا ثم يختار لها الأسماء –الألفاظ– المناسبة ،وبالتالي نحصل على نوع من المقابلة التي يرتبط فيها كل اسم بما يناسبه من المعنى ، فالجاحظ قد أدرك بأن المتكلم له مخزون من المعاني على مستوى

---

1)- البيان والتبيين، ج1 ،ص 69.

2)- الشاهد والمثل :ما هما إلا عملية معادلة للتأليف والتخيير عند الجاحظ للتوسع أكثر في ذلك ينظر:النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية ص310 وما بعدها .

3)- البيان والتبيين ، ج4 ،ص 24.وذكر هذين المفهومين في ج1،ص 86 .

4) – ينظر:النظريات اللسانية و البلاغية والأدبية ،ص 313.

5) - البيان والتبيين، ج3 ،ص 14.

الذهن فعليه أن يقوم بترتيبها أولا بعد التدقيق فيها ثم يختار لها ما يناسبها من الألفاظ كما قلت سلفا.

2-العلاقات التركيبية (relations syntagmatiques)

تعتبر العلاقات التركيبية في نظر دي سوسير " علاقات مبنية على صفة اللغة الخطية تلك التي تستثني إمكانية لفظ عنصرين في آن واحد ،وهذان العنصران إنما يقع الواحد منهما إلى جانب الآخر ضمن السلسلة الكلامية [1] "ويعرفها رولان بارتroland barthes-على أنها نسق –تأخذ فيه العلامة موقعها بالنظر إلى أخواتها المجاورة لها في السياق الفعلي [2-3]

أما الجاحظ فقد أشار إلى العلاقات التركيبية في مواضع مختلفة من البيان والتبيين ،فهذا يدل على وعيه التام لما تحمله هذه العلاقات من الأهمية باعتبارها آلية مهمة يعمل بها النظام اللغوي أثناء الكلام الفعلي بين المتكلمين ،إذ العلامة اللغوية لا تكتسب قيمتها إلا داخل هذا المستوى التركيبي – علاقات التأليف-وهذا يعني أن عبارة ما في تركيب ما لا تكتسب قيمتها –معنى- إلا بتقابلها مع ما يسبقها أو ما يليها أو الاثنين معا.[4]

فالدارسون المحدثون رفضوا-دراسة ومعالجة المفردات من حيث كونها ماهيات منعزلة ،ومنحوا العلاقات القائمة بين الكلمات الأولوية في الدراسة [5].

إلا أننا نشير إلى أن هذه العلاقات التركيبية بين الوحدات اللغوية تحكمها مجموعة من القواعد والقوانين تسمى بالتراكيب النحوية حيث أن هذه التراكيب النحوية تختلف باختلاف لغات العالم فلغات العالم لا تسير على نظام واحد في بناء جملها وتراكيبها [6]،كما أن ترتيب عناصر الجملة لا يخضع لنظام الجملة الداخلي فقط فهناك ظروف أخرى تتحكم فيه كسياق المقام يقول الجاحظ:"فإذا رأت مكانه الشعراء وفهمته الخطباء ،ومن قد تعبد للمعاني وتعود نظمها وتنضيدها

---

1) – محاضرات في الألسنية العامة ،ص 149

2) – السياق الفعلي :اللغة في صورة الخطاب الفعلي المنجز ،وليس اللغة في نظامها الشكلي المجرد.

3) Roland Barthes essais critiques éditons de seuil, paris,1964 p/206

4) – ينظر :محاضرات في الألسنية العامة ،ص 137

5) – نفسه ،ص 7

6) – ينظر:كريم زكي حسام الدين ،أصول تراثية في اللسانية الحديثة،ط3 ،2001م ،ص208.

وتأليفها وتنسيقها ..."[1] من خلال النص السابق الذكر نلحظ أن الجاحظ على ثقة تامة بما يقول فعباراته المستعملة لا تختلف عن مفاهيم علماء اللغة المحدثين ،فهو يرى أن التأليف والتنضيد والتنسيق للمعاني تحتاج إلى تعود ودربة وتمرن ،حيث تكون هذه العملية على المستوى الأفقي للجملة أو بما يسمى بالعلاقات التركيبية فالمتكلم لابد أن يكون ملما بالقواعد والقوانين للغة التي يتواصل بها ،وبالتالي يتحرى المواقع الصحيحة والمناسبة للكلمات التي يستعملها ،لأن هذه الألفاظ [2] المكونة للجملة إذا لم تقع في موقعها ،فهذا يعني وبكل بساطة الإخلال بالنظام العام للغة التي يتكلمها،و بالتالي يؤدي هذا إلى فساد المعنى المراد توصيله إلى المتلقي أو يؤدي إلى إعاقة الفهم يقول الجاحظ في ذلك :"قال نفيس لغلام لي :الناس ويلك أنت حياء كلهم أقل – ويصحح ذلك الجاحظ بقوله :"يريد:ويلك أنت أقل الناس كلهم حياء "[3] وفي نفس المعنى يورد الجاحظ نصا آخر يرى فيه أن أي الإخلال بالنظام يؤدي إلى خلل في المعنى قائلا:-وقلت لخادم لي :في أي صناعة اسلموا هذا الغلام ؟قال:في سند نعال، يريد :في أصحاب النعال السندية" [4]

فالمتكلم في نص الجاحظ السابق يبدو أنه لم يستطع أن يقوم بعملية التأليف كما يجب ،و هذا مرده إلى كونه يجهل القوانين التي تجعله يؤلف ،وهذه الكلمات تأليفا يتناسب مع المواقع السليمة لها ،فطبيعة العلاقات التركيبية –تقوم على المغايرة ،فكل كلمة في الوحدة–الجملة –هي مغايرة للأخرى وتختلف عنها في كل خصائصها ،ولا يجمع بينهما إلا قابليتهما للتجاور ،وهذه علاقات حضورها يقوم على شيء حادث في الجملة[5] لأن الظاهرة اللغوية حتى تتصف بالا بلاغية أي أن تحمل كلاما صحيحا مفهوما لابد أن تخضع- لظاهرة التركيب ،وهي تخيير الكلام ونظمه لتشكيل سياق الخطاب الأدبي و التركيب عنصر أساسي في الظاهرة اللغوية ،وعليه يقوم الكلام الصحيح [6] وهذا يتطابق تماما تماما مع ما قال به الجاحظ في النصين السابقين ، فتصور الرجل لعملية التركيب وفق نظام لغوي يعكس بصورة أو بأخرى عبقريته ،فالوحدة اللغوية إذا لم تقع في موقعها اللائق بها يحدث تنافرا بينها

---

1)-البيان و التبيين ،ج4،ص30.

2) - يقول الدكتور:إبراهيم أنيس في كتابه الموسوم بدلالة الألفاظ تكاد تجمع المعاجم العربية على أن "الألفاظ "ترادف "الكلمات "في الاستعمال الأعم فلا فرق بين أن يقال أحصينا ألفاظ العربية أو كلمات العربية ،ورغم هذا فالنحاة يحاولون التفرقة بين الكلمة واللفظ والقول ،فهم يستشعرون مع اللفظ عملية النطق وكيفية صدور الصوت وما يستتبع هذا من حركات اللسان والشفتين ،فإذا ربط المتكلم هذه الأصوات المنطوق بها وما يمكن أن ندل عليه من معنى تكونت في 2رأيهم "الكلمة"أي أن الكلمة أخص لأنها لفظ دل على معنى ينظر: من على هامش ،دلالة الألفاظ ،ص 138 .

3)- البيان والتبيين ،ج1 ،ص .123

4)- نفسه ، ص 162 .

5) - ينظر:الخطيئة والتكفير، ص36.

6)- نور الدين السد ،الأسلوبية وتحليل الخطاب (دراسة في النقد العربي الحديث)دار هومة،للطباعة والنشر و التوزيع،الجزائر،ج1،ص 168 .

وبين الوحدات المجاورة لها وبالتالي نقول" إن موقع الوحدة لا تأخذه اعتباطا بل-يكون الاختيار في الكلمات محكوما بقواعد النظام –النظم ،texture –وبقواعد الإجبار التي تفرضها علاقات التأليف لأن الكلمة السابقة تفرض ظروفها على اللاحقة ،فتقرر ما يناسبها وتبعد ما يتنافر معها "[1].

فها هو الجاحظ في نص آخر يضاهي ويقترب من النظرة الحديثة لعلاقات التركيب بقوله :"...وتجد اللفظة لم تقع موقعها و لم تصر إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها ،والقافية لم تحل في مركزها وفي نصابها ،و لم تتصل بشكلها ،وكانت قلقة في مكانها نافرة من موضعها ،فلا تكرها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها ،فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ،و لم تتكلف اختيار الكلام المنثور لم يعبك بترك ذلك أحد ،فإن أنت تكلفتهما ،و لم تكن حاذقا مطبوعا و لا محكما لشأنك بصيرا بما عليك وما لك ،عاب من أنت أقل عيبا منه .... "[2] .

إجمالا يمكننا ملاحظة أمر جد مهم يتمثل في مدى إلحاح الجاحظ في كل مرة على أن هذه الآلية ليس من السهل أن يتعاطاها أي أحد ،بل من أراد ذلك لابد أن يكون عارفا بقواعد النظام اللغوي هذا جهة ومن جهة ثانية يكون من الذين قرضوا الشعر كما أن يكون ممن تكلفوا اختيار الكلام .

فالجاحظ يرى أن اللفظة إذا لم تقع في موقعها و لم تصر إلى قرارها الخاص بها المقسوم لها، يعد ذلك اغتصابا لها ،فهو يشبهها بالإنسان الذي يترل في موطن غير موطنه فيحس بلوعة الفراق ،فالتأليف في رأي الجاحظ يحتاج إلى متكلم حاذق مطبوع محكما لشأنه بصيرا بما له وما عليه.

وفي نص آخر للجاحظ يرى فيه أن الحركات الإعرابية لها دور في تحديد وفهم المعنى إذ يعتبرها علامات دالة يقول في ذلك :"وإنمًا عنى العتابي إفهامك العرب حاجتك على مجاري كلام العرب الفصحاء .و أصحاب هذه اللغة لا يفقهون قول القائل منا مكره أخاك لا بطل "و"إذا عز أخاك فهن "ومن لم يفهم هذا لم يفهم قولهم :ذهبت إلى أبو زيد،ورأيت أبي عمرو ،ومتى وجد النحويون أعرابيا يفهم هذا وأشباهه بهرجوه و لم يسمعوا عنه ،لأن ذلك يدل على طول إقامته في الدار التي تفسد اللغة وتنقص البيان"[3] ، ومنه يكننا القول بأن النحاة الأوائل الذين وضعوا قواعد النحو العربي ،إذا وجدوا من لا يفرق بين الأبواب النحوية كالفاعلية والمفعولية والإضافة وغيرها من الأبواب

---

1)- الخطيئة والتكفير ،ص40 .

2)- البيان والتبيين، ج1 ،ص 138.

3) - نفسه ،ص ص 162-163

النحوية الأخرى لم يأخذوا عنه،لأن الحركات الإعرابية من نصب أو رفع أو خفض أو جـــزم إنمـــا يكون بالنظر إلى الموقع الذي تحتله الكلمة في السياق اللغوي[1] .

بهذا نستطيع القول وبدون أن نجزم في ذلك بأن الجاحظ تنبه إلى الدور الهـــام الـــذي يلعبـــه الإعراب في تحديد الدلالة ،كونه سمة دالة على المراد من الكلام ،و حتى نوجز الحديث إلى ما يصبوا إله –ربما– الجاحظ، بأنه يعلم الدور الكبير للإعراب في بيان مقاصد المتكلم فلا يحصل فهم الكـــلام إذا لم نراع صحة الإعراب وسلامته التأليف .

فصاحب البيان والتبيين قد أدرك أهمية علاقات التأليف في الكشف عن المعنى و مقاصد الكلام يقول الجاحظ:"إذا كان الشعر مستكرها ،وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات ،وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضـــيا موافقا ،كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة "[2]

حتى تتحقق صفة التآلف والانسجام بين الكلمات لابد أن نضع الكلمة إلى جنب أختها التي لا يوجد بينها وبين جارتها تنافر ،حيث يسهل على المنشد إنشادها "وأجود الشعر ما رأيته مـــتلاحم الأجزاء سهل المخارج ،فتعلم بذلك أنه قد أفرغ افراغا واحدا وسبك سبكا واحدا ،فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان "[3] .

إن الوحدات اللغوية الدالة وغير الدالة التي تكلم عنها الجاحظ وحدات :–تتحـــرك أفقيـــا وتعتمد على التجاور بين الوحدات المؤلفة هذا بحكم الصلة بين هذه الوحدات ،حيث تكون صـــلة تآلف تبادلية ،أو صلة تنافر مما يجعل التأليف ممكنا أو غير ممكن فكلمة —جاء– على صـــلة تـــآلف تبادلية مع –الرجل–مما يمكننا من التأليف (التركيب) فنقول :جاء الرجل ،لكن كلمة جاء تتنافر مع فعل آخر مثل غاب ولا نستطيع التأليف بينهما ،فنقول :"جاء غاب ،ولذا فـــإن الكلمـــة تؤســـس وظيفتها بعلاقتها بما يجاورها ، مما سبق عليها ومما لحق عليها "[4].

---

1)- ينظر: عبد النعيم خليل ،نظرية السياق بين القدماء والمحدثين ،دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ،ط1 ،2007م ،ص 75.و للتوسع أكثر في المعنى الإعرابي للكلمة،ينظر : توفيق بن عمر بلطه جي، كيف نتعلم الإعراب ،دار الفكر المعاصر ،بيروت –لبنان ،1999م،ص 204 ،وما بعدها

2)- البيان والتبيين، ج1 ،ص ص 66-67.

3)- نفسه ،ص 67

4)- الخطيئة والتكفير، ص 36.

خامسا- السياق والمقام وأثرهما في إنجاز الدلالة

إ ن الفائدة الكبرى للمقام أو سياق- الحال-، أنهما يقومان في أحيان كثيرة بتحديد المعنى المقصود من الكلمة المستعملة في تركيب ما ،فقد أشار إليهما العلماء قديما ، نظرة واحدة كما أنهما في بعض الأحيان يسميان بسياق الموقف [1] ، إلا أننا في بداية هذا المبحث سوف نحاول أن نقدم المعنى اللغوي والاصطلاحي لهذين المفهومين .ثم نتطرق إليهما على أساس أنهما عامل واحد له أهمية كبيرة في إنجاز الدلالة و فهمها عند الجاحظ .

1- السياق contexte

- السياق لغة:

من ساق الإبل وغيرها يسوقها سوقا وسياقا ، قال تعالى –وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد-ق/21وقيل في التفسير : يسوقها إلى محشرها ،و المساوقة ، المتابعة [2]

وذكر التهانوي: أن السياق في اللغة بمعنى "الإيراد "[3]

-السياق اصطلاحا:

هو تلك العلاقات القائمة بين الكلمات ،واستعمالاتها داخل نظام الجملة وهذا ما أكده أصحاب نظرية السياق [4] إذ أكدوا على الوظيفة الاجتماعية للغة ، حيث نجد أن معنى الكلمة عندهم هو استعمالها في اللغة ، كما أنهم يركزون على أنه هو أهم ما يضبط الوحدة اللغوية ،و معظم الوحدات اللغوية الدلالية تقع متجاورة مع وحدات لغوية أخرى ،فمعني هذه الوحدات لا يمكن وصفها أو تحديدها إلا بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها [5]

أما ستيفن أولمان-s-ullmann –يعرفه بقوله:"إن كلمة السياق contexte هي النظم اللفظي للكلمة ، وموقعها من ذلك النظم ، كما ينبغي أن يشمل كل ما يتعلق بالكلمة من ظروف

---

1)- ينظر :حلمي خليل،الكلمة ،دراسة لغوية ومعجمية ،دار المعرفة الجامعية ،ص 218 .

2)- لسان العرب ج10/ص166

3) - التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4 ،سنة 1977م ،ص27 .

4)- لقد كان زعيم هذا الاتجاه فيرث -firth-الذي أكد على الوظيفة الاجتماعية للغة،كما ضم هذا الاتجاه أسماء مهمة أمثال: halliday و sinclair و mitchell و mc lyons و intosh = · –علم الدلالة ص 68 .

5) - أحمد مختار عمر، علم الدلالة ، ، عالم الكتب ،القاهرة ،ط5 ،1998، ص ص 68 -69.

وملابسات ، والعناصر اللغوية المتعلقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمة لها هي الأخرى أهميتها البالغة في هذا الشأن "[1].

-المقام لغة :

المقام: موضع القدمين و المقامة بالضم : الإقامة و المقامة بالفتح: المجلس و الجماعة من الناس و أما المقام بفتح الميم و المقام بضم الميم ،فقد يكون كل واحد منهما بمعنى الإقامة وقد يكون بمعنى موضع القيام ، لأنك إذا جعلته من قام يقوم فمفتوح ، وان جعلته من أقام يقيم فمضموم ، فإن الفعل إذا جاوز الثلاثة فالموضع مضموم الميم ، لأنه مشبه ببنات الأربعة نحو : دحرج وهذا مدحرجنا ن وقوله تعالى :-لا مقام لكم –أي لا موضع لكم و قرئ لا مقام لكم بالضم أي لا إقامة لكم وقوله تعالى :-وحسنت مستقرا و مقاما –أي موضعا وقول لبيد:

عفّت الدِّيار محلُّها فمقامها بمنى تأبَّد غولها فرجامها

مقامها أي الإقامة ، وقامة المرأة تنوح أي جعلت تنوح ، قد يعنى به ضد القعود ،لأن أكثر نوائح العرب قيام ،قال لبيد:

قُوما تجوبان مع الأنواح [2].

- المقام اصطلاحا:

إنه يتمثل في مجموع العناصر غير اللغوية المرتبطة ارتباطا وثيقا بالنص الكلامي بهدف بلوغ المعنى المراد يقول تمام حسان في ذلك:"هذا هو المقصود بفكرة المقام ،فهو يضم المتكلم و السامع أو السامعين و الظروف و العلاقات الاجتماعية و الأحداث الواردة relevant في الماضي والحاضر ثم التراث و الفولكلور والعادات والتقاليد و المعتقدات والخزعبلات ... "[3]

3-دور السياق والمقام في إنجاز الدلالة

الجاحظ يعتبر من أولئك الأوائل الذين تفطنوا للدور الذي تلعبه الملابسات والظروف الخارجية التي تحف بظاهرة الكلام كالمتكلم والسامع و ظروف المقال [4]،فقد تحدث المفسرون قديما

---

1)- ستيفن أولمان،دور الكلمة في اللغة ،تر:د/كمال بشر ،دار غريب للطباعة والنشر و التوزيع ، القاهرة ،ط12 ،ص68 .

2) - لسان العرب ،ج 12 ،ص 498

3) - تمام حسان ، اللغة العربية معناها مبناها، نشر وتوزيع و طبع، عالم الكتب ،ط4 ،2004م،ص352 .

4) - إن الجاحظ لم يستعمل مفهوم المقام فقط للتعبير عن الملابسات والظروف التي تسهم في صنع النص أو في قراءته قراءة صحيحة بل استعمل أيضا مفهوم الحال ص 93،والموقف ص 116، والموضع ص 88 البيان والتبيين ج1 .التي أراد بها المقام .إلا أن المقام هو الغالب في الاستعمال عنده.

عن أهمية العلم بأسباب النزول في القرآن الكريم و أفردوا له بابا بالتأليف للكشف عن الغموض الذي يكتنف بعض آي القرآن ،فقد قال ابن دقيق العيد "بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن "، وقال ابن تيمية "معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية ،فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب"[1]–وقال الو احدي"لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها و بيان سبب نزولها"[2] لذلك ركز علماء اللغة على ما هو منطوق ،فتعرضوا للعلاقة بين المتكلم وما أراده من دلالة و السامع وما فهمه من الرسالة و كذا الأحوال المحيطة بالحدث الكلامي ،فالجاحظ كان له اهتمام كبير بهذه الحيثيات التي تصنع خطابا ذا معنى فتفطن لها ودعا إليها يقول في ذلك :"...فكن في ثلاث منازل ،فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا ،وفخما سهلا ويكون معناك ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا ،إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت ،إما عند العامة إن كنت للعامة أردت .و المعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة ،و كذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة .و إنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة ،مع موافقة الحال ،وما يجب لكل مقام من المقال و كذلك اللفظ العامي و الخاصي.فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك ،وبلاغة قلمك ،ولطف مداخلك ،و اقتدارك على نفسك ،إلى أن تفهم العامة معاني الخاصة ،و تكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء ،ولا تجفوا عن الأكفاء ،فأنت البليغ التام "[3]

من خلال النص السابق يمكننا القول بأن الجاحظ كان يركز على الكلام المنطوق،ليس في هذا النص فحسب فهناك نصوص أخرى تثبت صحة ما سنذهب إليه،فهو عندما يقول :"..أن يكون لفظك رشيقا.. " هذا يعني وبكل وضوح أنه يتكلم عن الكلام المنطوق حيث اشترط له شروطا حتى يكون مفهوما وله دلالة عند السامع واضعا في الحسبان الطبقة التي يتواصل معها فالخاصة من الناس لها ألفاظ خاصة ، والعامة من الناس لها ألفاظ خاصة بها أيضا ،فالمعني عنده لا يشرف و لا يتضع بالخاصة أو بالعامة ،إنما شرفه مرهون بالصواب و إحراز المنفعة ،كما يجب أن يتفق مع الظروف الخارجية التي أوجدت هذا الخطاب دون غيره ،كما أنه دعا إلى من تحلى بصفة الاقتدار على توصيل معاني الخاصة إلى العامة فله ذلك ،شريطة أن يكسو تلك المعاني ألفاظا واسطة بعيدة عن كل غموض فذلك من تمام بلاغة المتكلم .

---

1) السيوطي جلال الدين ،الإتقان في علوم القرآن ،دار الكب العلمية ،بيروت –لبنان ،ص ص61-62.

2)- نفسه .

3) - البيان والتبيين ،ج1 ،ص 136.

إن عبارة الجاحظ الفارطة الذكر –لكل مقام مقال –هي عبارة شهيرة عبارة تصدق على دراسة المعنى في كل اللغات لا في اللغة الفصحى فحسب ،فهي تصلح للتطبيق على كل الثقافات على حد السواء ،فمالينوفسكي لم يكن يعلم وهو يصوغ مصطلحه الشهير: context of stiuation أنه مسبوق إلى مفهوم هذا المصطلح بألف سنة أو ما فوقها. [1]. فالمعنى الدلالي في بعض الأحيان لا يتضح بمجرد النظر إلى معنى – المقال – فلا يكننا بأي حال من الأحوال تناسي أو نسيان –المقام– لأن المقام يعتبر عاملا مهما في تحديد محتوى الرسالة –وكلما كان وصف المقام أكثر تفصيلا كان المعنى الدلالي الذي نريد الوصول إليه أكثر وضوحا [2] .

لأجل ذلك أصبح من الضروري على المتكلم أن يعرف أحوال من يخاطبهم من حيث الميولات والتكوين الثقافي وما إلى ذلك، كما يجب عليه أن يعرف أقدار المعاني من إطناب و إيجاز،فهذا بشر بن المعتمر أوصى المتكلم :"ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ،ويوازن بينها ،وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات ،فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ، ولكل حالة من ذلك مقاما حتى يقسم أقدار الكلام على أقدر المعاني ،و يقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات ،و أقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات... "[3] .

ليس هذا فقط فالجاحظ لم يراع حال المخاطب فحسب بل تنبه إلى شيء آخر في غاية الأهمية ،كونه راعى أيضا حال المتكلم ،فهو يرى أنهما متساويان في صنع خطاب حقيقي له معنى ولهذا قال:" المفهم لك والمتفهم عنك شريكان في الفضل ،إلا أن إلا المفهم أفضل من المتفهم و كذلك المعلم و المتعلم ،هكذا ظاهر هذه القضية و جمهور هذه الحكومة... "[4].

إن علاقة العلامة اللغوية بالمجتمع علاقة تجعلنا ندرك أن للعلامة بنمطها السيميائي ذات فضاء ليس من السهل إخضاعه لثنائية الدال والمدلول لأن العلامة في أساسها تتسم بديناميكية وحركية و بالأحرى فهي إنزياحية و تكتسب دلالتها من الحيز الاجتماعي [5]. و،بالتالي كل فئة اجتماعية تتميز برصيد علاماتي معين يتطلب منا أن نخاطبها به ،وهذا نفهمه من خلال قول الجاحظ التالي :"وكلام الناس في طبقات،كما أن الناس أنفسهم في طبقات ،فمن الكلام الجزل والسخيف والمليح و الحسن

---

1)- اللغة العربية معناها و مبناها ،ص 372 .

2)- نفسه، ص346

3) - البيان والتبيين ،ج1 ،ص ص 138 -139

4) - نفسه ، ص ص 11-12.

5) - ينظر :قدور عبد الله ثاني ،سيميائية الصورة (مغامرة سيميائية في أشهر الإرساليات البصرية في العالم) ط1، 2008م،ص 78 .

والقبيح و السمج ،و الخفيف والثقيل ،وكله عربي وبكل قد تكلموا وبكل قد تمادحوا وتعايبوا،فإن زعم زاعم أنه لم يكن في كلامهم تفاضل ،ولا بينهم في ذ لك تفاوت ،فلم ذكروا العي و لبكىء و الحصر والفحم الخطل والمسهب والمتشدق والمتفيهق والمهماز و الثرثار و المكثار والمهمارو الثرثار و المكثارو الهمار ، و لم ذكروا الهجر و الهذر والهذيان والتخليط ،وقالوا رجل تلقاعة وتلهاعة وفلان يتلهيع في خطبته ،وقالوا فلان يخطئ في جوابه ويحيل في كلامه ويناقض في خبره ؛ولولا أن هذه الأمور قد كانت تكون في بعضهم دون بعض لما سمي البعض والبعض الآخر بهذه الأسماء "[1] فعلى المتكلم أن يكون كيسا فطنا و يعرف من يخاطب،فكلام الطالب مع أستاذه يختلف كل الاختلاف عندما يكون كلامه مع أحد أصدقائه،فهذا مقام و ذلك مقام ،ولكل مقام مقاله الخاص به ،لأنه من واجب المخاطب أن يعطي كل مقام حقه من سياسة وحذاقة حتى يعطي مقالا له دلالة بالنسبة للمستمع [2].

فهذا عبد القاهر الجرجاني ذهب مذهب الجاحظ إلى ضرورة ربط الكلام بسياقه الإبلاغي الذي يقال فيه،وأن لا ننظر إلى حسن التركيب أو وجه من الوجوه بل علينا أن ننظر إلى المقام ،وهذا ما سماه البلاغيون بمقتضى الحال أو الاعتبار المناسب يقول القز ويني :"...فإن مقامات الكلام متفاوتة ،فمقام التذكير يباين مقام التعريف ،و مقام الإطلاق يباين مقام التقييد ،مقام التقديم يباين مقام التأخير ،ومقام الذكر يباين مقام الحذف ،ومقام القصر يباين خلافه ،ومقام الفصل يباين مقام الوصل ...وارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب ،وانحطاطه بعد مطابقته بمقتضى الحال ،هو الاعتبار المناسب ،وهذا يعني تطبيق الكلام على مقتضى الحال ،هو الذي يسميه الشيخ عبد القاهر بالنظم "[3] .

إن مصطلح – مقتضى الحال –السابق الذكر اهتم به علماء علم المعاني والحال عندهم يعدل على –مقتضى الحال –يقول التهانوي:"والحال في اصطلاح أهل المعاني هي الأمر الداعي إلى المتكلم على وجه مخصوص –أي الداعي إلى أن يعتبر مع الكلام الذي يؤدى به أصل المعنى خصوصية ما هي المسماة بمقتضى الحال ،مثلا كون المخاطب منكرا للحكم حال يقتضي تأكيد الحكم و التأكيد مقتضاها ... وعلى هذا النحو قولهم –علم المعاني –علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق

---

1) - البيان والتبيين ،ج1 ،ص ص 144-145 .

2) - ينظر: نفسه، ج1 ،ص 116 .

3)- الخطيب القز ويني ،الإيضاح في علوم البلاغة ،دارا لجيل ،بيروت ، ط3، 1993 م ، ص42-43-44.

اللفظ مقتضى الحال –أي يطابق صفة اللفظ مقتضى الحال ،وهذا هو المطابق بعبارات القوم حيث يجعلون الحذف والذكر إلى غير ذلك معللة بالأحوال " [1].

ها هو الجاحظ يؤكد على ضرورة التقيد بمقتضى الحال من طرف المتكلم حتى يكون كلامه مفيدا يقول في ذلك:"ومن علم حق المعنى أن يكون الاسم له طبقا ،وتلك الحال له وفقا ،ويكون الاسم له لا فاضلا ولا مفضولا ،ولا مقصرا ولا مشتركا ،ولا مضمَنا ،ويكون مع ذلك ذاكرا لما عقد عليه أول كلامه ،ويكون تصفحه لمصادره ،في وزن تصفحه لموارده ،ويكون لفظه مونقا ،و لهول تلك المقامات معاودا .ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم ، والحمل عليهم على أقدار منازلهم ..." [2]

يبدو أن للجاحظ معرفة واسعة بالدور الذي يكتسيه سياق المقام –الحال- في إنتاج الوحدات اللسانية وقف نظام لغوي تركيبي له معنى ،فهذه النظرة نجدها عند فيرث ferth الذي يرى" أن إنتاج الملفوظات اللسانية يتم في إطار سياق الموقف الاجتماعي و الثقافي ،وبذلك يبرز المتكلم – المستمع –للغته دوره وشخصيته في البيئة اللسانية المتجانسة " [3].فقد اعتمد في تحليله اللغوي على سياق المقام مركزا على كل ما يتصل به من ظروف وملابسات .

وعليه يمكننا القول بأن الجاحظ قد أعطى أهمية كبيرة للسياق الخارجي الذي يسهل على السامع والمخاطب دون أن لا ننسى القارئ في فهم الخطاب سواء كان منطوقا أو مكتوبا،كما أنه اهتم بالسياق اللغوي مثلما لاحظنا ذلك أثناء حديثنا عن العلاقات التخيير والتأليف التي دعا إليها ،حتى يكون الكلام وفق نظام سلس وسياق لغوي متميز وما يترتب على ذلك من دلالات مختلفة،ليس فيه من التكلف والصنعة شيء.

فهذا سيبويه كان من الذين اهتموا بسياق الحال كما يسميه بنفسه وعناصره المكونة له كالمتكلم والمخاطب و العلاقة الموجودة بينهما وموضوع الكلام و أثره والحركة الجسمية المصاحبة للحدث الكلامي و غير ه من العناصر غير اللغوية المصاحبة للكلام .ومثال ذلك اهتمامه ببيان العلاقة بين المتكلم والمستمع وما ينتظره المخاطب من المتكلم ، فالمتكلم إذا قال :"كان زيد–فإن المخاطب–إنما

---

1)- كشاف اصطلاحات الفنون ،ج2 ،ص 125 .

2)- البيان والتبيين، ج1 ،ص 93 .

3) - مباحث في اللسانيات، ص 154

ينتظر الخبر " [1].. وإذا قال المتكلم :"كان حليما –فإنما ينتظر –أي المخاطب –أن تعرفه صاحب الصفة "[2]

أكد ابن جني على أهمية سياق المقام ،فهو يرى أن له دورا بارزا في فهم دلالة النص ،ومنه ما تعرض له من أسباب تسمية الأشياء كأن :"...يكون الأول الحاضر شاهد الحال ،فعرف السبب الذي له ومن أجله ما وقعت عليه التسمية ،والآخر –لبعده عن الحال –لم يعرف السبب للتسمية "[3]

فابن جني أثناء حديثه عن طبيعة اللغة التي كان أكثرها مجازا فهو يرى أنه لو لا سعة انتشارها لمقتضيات أعراف وعادات الناس لما فهم الناس منها شيئا، لأن الثقافة الاجتماعية لها علاقة بالدلالة التي جرى استعمالها في غير ما وضعت له على سبيل المجاز .يقول في ذلك :"أكثرها جار عن المجاز ...فلما كانت كذلك ،وكان القوم الذين خوطبوا بها أعرف الناس بسعة مذاهبها ،وانتشار أنحائها جرى خطابهم بها ما يألفونه ويعتادونه منها ، وفهموا أغراض المخاطب لهم بها على حسب عرفهم، وعاداتهم في استعمالها" [4]

إن نجاح العملية التواصلية لها علاقة كبيرة بحسن الكلام ،ولن يكون ذلك إلا إذا كان المتكلم ملما بالعناصر اللغوية و غير اللغوية التي دعا إليها الجاحظ والحال أو المقام أحد هذه العناصر التي لها الحظ الأوفر في ذلك الحدث الكلامي،فالمعنى الدلالي لا يمكن أن يتضح بمجرد النظر إلى معنى- المقال- فحسب وعليه فالمقام يعتبر عاملا مهما في تحديد مضمون الخطاب وبنائه سواء كان منطوقا أو مكتوبا.

---

1) -سيبويه،الكتاب ،تحقيق وشرح:عبد السلام محمد هارون ،دار الجيل ، ط1،ج1 ،ص48

2) - نفسه ،ج1 ،ص ص 47-48.

3) - الخصائص، ج1 ،ص 71.

4) - نفسه ،ج3،ص ص175-176.

خـــاتـــــمة ونتائج

من خلال هذه الدراسة ثَـــبُتْنَا على مجموعة من النتائج التي تبدو لنا في غاية الأهمية ،كما أنهـــا تدل على أن تجلي الملمح السيميائي اللغوي في الفكر الجاحظي بدا لنا واضحا ،بالإضافة إلى ذلـــك القدرة الفكرية والعقلية التي تميز بها الجاحظ أهلته لأن يكون معلما للعقل و الأدب ،كما قيل علـــى ألسنة من اعترفوا له بذلك ،ومن أهم هذه النتائج ما يلي:

– العصر العباسي هو العصر الذهبي للأمة الإسلامية إذ كان له الأثر الواضح في تكوين ثقافة الجاحظ العلمية والعقدية .

–كتاب البيان والتبيين آخر ما ألف الجاحظ إذ يحمل بين طياته الأشياء الكثيرة من نوادر وخطـــب وأحكام و أمثال وشعر ...

–من خلال البيان والتبيين نستطيع القول بأن للجاحظ نظاما فكريا متميزا يكشف عن الروح العلمية والموضوعية الدقيقة التي تحلى بها ،فحديثه عن مختلف العلامات في هذا الكـــون يثبـــت بطريقـــة أو بأخرى أن له فضل السبق ، إنه يعبر عن علم السيميائيات بشكل أو بآخر .

– تناول العلامة معتبرا إياها وسيلة لا غاية ،حيث تناولها من خلال إطارها النفعي التداولي ،مركزا في ذلك على مفهوم الحكمة التي يهدف من ورائها إلى معرفة الله –عز وجل – مبتعدا عن النظـــرة الفلسفية الغربية الضيقة البعيدة عن الواقع "فليس الجبل بأدل على الله من الحصاة".

– اللغة مخزون ذهني لا تظهر إلا من خلال استعمالها من طرف المتخاطبين .

–تكلم عن اللفظ والمعنى ولكن ليس بمعزل عن الواقع الفعلي للكلام –المنجز–فوجدناه ليس كما ظن البعض أنه يقوم بعملية مفاضلة بينهما ،بل وجدناه في كثير من الأحيان يطابق بينهما "معنى شـــريف ولفظ متخير".

–أدرك أن للغة نظام فريد من نوعه ،حيث وجدنا أن الجاحظ تفطن إلى أن اللغة تسير وفـــق نظـــام لغوي يتميز بأدوات إجرائية هامة في عملية التواصل اللغوي بين المتكلمين .

-العلامة اللغوية باعتبارها علامة سيميائية لا تأخذ مكانها في النظام اللغوي الابلاغـــي بنـــوع مـــن العشوائية بل موقعها مرهون بعوامل تتعلق بالنظام اللغوي في حد ذاته ،فالعلامة اللغوية تخضع لهـــذا النظام خضوعا حتميا و هذا حتى تكتسب قيمة دلالية .

-العلامة اللغوية باعتبارها علامة سيميائية لفظية ، ونظرا لتعددها فهي تسير وفق علاقات ترابطيـــة (أفقية)سماها الجاحظ بعلاقات التخيير و علاقات تركيبية (عمودية)سماها بعلاقات التأليف ،فإننـــا وجدناه في كل مرة يلح على الدور الذي تلعبه هذه العلاقات في نسج نص له دلالة إبلا غية واضحة

-أكد على الدور الذي يقوم به السياق والمقام في فهم الدلالة و إنجازها والعلاقـــة المتبادلـــة بـــين المخاطب والمتلقي وسياقات التواصل المختلفة التي تصنع الفارق بين المتكلمين ،حيث أكد الجـــاحظ على ضرورة التقيد بالمقام و الأهمية التي يلعبها في ذلك، فلكل مقام حديث خاص به ،ولكل متلـــق ألفـــاظ خاصة به.

-الجاحظ اهتم بالمقام اهتماما كبيرا حتى غدا ضرورة قصوى عنده ،فهو انتبه إلى شيء مهم في إنتاج المعنى اللغوي ،وهذا أدى بنا أن نستخلص أمرا غريبا ،وهو أن الجاحظ لم تكن له النظرة الشـــكلية للغة مثلما ما هو حاصل عند اللسانيين والسيميائيين الغربيين ،فهم قد أهملوا هذا الجانب في الدراسة العلمية و الموضوعية للغة ،أما الجاحظ قد تنبه إلى هذا و عرف أن له ضرورة في وصف المعنى اللغوي

- الجاحظ حينما تكلم عن المخاطب و المتلقي واللفظ والسياق ،فهو قد توصل إلى تداولية الخطاب اللغوي .

وفي الأخير نأمل أن نكون قد وفقنا في بحثنا، الذي أردنا من خلاله القول بـــأن التـــراث العـــربي الإسلامي يحمل كنوزا تكاد تضاهي ما أنتجه الفكر الغربي ،فهي تحتاج إلى من يضـــعها في إطارهـــا الفكري الذي أنتجت فيه ،حتى يتمكن الدارس من عملية الربط المنهجي بين هذا التراث و المنـــاهج الغربية الحديثة،وبالتالي الحفاظ على قيمة التراث العربي الإسلامي الذي يعتبر البيان والتبيين جـــزء لا يتجزأ منه ،و الجاحظ واحد من الذين صنعوا هذا التراث المتميز بتميز علمائه الأفذاذ.

وهكذا يمكننا القول ودون مبالغة بأن الجاحظ يعتبر رائدا من رواد الدرس اللغـــوي الأوائـــل الذين كان لهم فضل كبير في صنع أمجاد هذه الأمة .

و للـــه الحمـــد و المـــنة

قائمة المصادر والمراجع

-بالعـــربيـــــة

- **القرآن الكريم** برواية حفص .

1- أمين أحمد - **ضحى الإسلام** -مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر القاهرة ،ط7، 1964م .

2 – **ضحى الإسلام** ،دار الكتاب العربي ،بيروت-لبنان،ط10.

3- أنيس إبراهيم - **دلالة الألفاظ** ،مكتبة الأنجلوالمصرية ،1997م.

4- إسماعيل عز الدين - **المصادر الأدبية و اللغوية في التراث العربي**،دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت،دط،دت.

5- بلطه جي توفيق بن عمر– **كيف نتعلم الإعراب** ،دار الفكر المعاصر بيروت-لبنان،1999م.

6- بلعيد صالح – **نظرية النظم** ،دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع ،الجزائر ،2001م،دط .

7- بناني محمد الصغير– **المدارس اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة** ،دار الحكمة،دط 2001 م.

8- النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ من خلال البيان و التبيين ديوان المطبوعات الجامعية ،دط،1999م.

9- بوملحم علي– **المناحي الفلسفية عند الجاحظ** ،دار الطليعة للطباعة و النشر،بيروت ،دط،دت.

10- تمام حسان – **اللغة العربية معناها و مبناها**،عالم الكتب ،للنشر و التوزيع و الطباعة ،ط4 2004م

11- التهانوي- **كشاف اصطلاحات الفنون**،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،ط4، 1977م.

12- بن التواتي التواتي– **مفاهيم في علم اللسان** ،ط1، 2006م.

13- ثاني قدور عبد الله– **سيميائية الصورة** (مغامرة سيميائية في أشهر الإرساليات البصرية في العالم ،ط1، 2008م.

14- الجاحظ (أبو عثمان)-**البيان والتبيين** ،تح:عبد السلام محمد هارون ،دار الفكر للطباعة و النشر والتوزيع،دت

15-**الحيوان** ،تح:عبد السلام محمد هارون،دار الكتاب العربي ،بيروت لبنان،ط1، 1969م،ج1 .

16-**الحيوان** ،تح:يحي الشامي ندار مكتبة الهلال،1997م، ج1.

17 -**رسائل الجاحظ**،،تح:محمد هبد السلام هارون ،دار الجيل ،بيروت،م1،ط1 1991م.

18- الجرجاني عبد القاهر – **دلائل الإعجاز**،تح:محمد التونجي،دار الكتاب العربي ،بيروت،دط 1995م.

19-جميل صليبيا -**المعجم الفلسفي** ، ،دار الكتاب اللبناني ،بيروت لبنان ،ج1 .

20- ابن جني (أبو الفتح عثمان)– **الخصائص**،تح:عبد الحكيم بن محمد ،المكتبة التوقيفية ،ج1 1418هـ.

21- الحاجري طه – **الجاحظ حياته و أثاره** ،دار المعارف بمصر،1969م،دط.

22- حمودة عبد العزيز – **المرايا المقعرة** ،مطابع الوطن ،الكويت،2001م.

23- حلمي خليل – **الكلمة دراسة لغوية معجمية** ،دار المعرفة الجامعية،د ط،دت

24- حمو الحاج ذهبية - **لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب** ،دائرة الأمل للطباعة و النشر و التوزيع دط،2005م.

25- الحموي ياقوت– **معجم الأدباء** ،مج4،دار الفكر للطباعة والنشر،ط1980،3م،مج 8،ج16

26 – معجم الأدباء،دار الكتب العلمية ،بيروت- لبنان،ط1، 1981م.

27- حنون مبارك – **دروس في السيميائيات** ، دار توبقال للنشر،المغرب،ط1، 1987م.

28- حميد البياتي سناء - **قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم**،دار وائل للنشر والتوزيع ،ط3 2003م.

29- حركات مصطفى – **اللسانيات العامة** ،دار الآفاق،دط،دت.

30- حسان عبد الحكيم – **الأدب المقارن و التراث الإسلامي** ،مكتبة الأدب القاهرة 1998م،دط.

31- حساني أحمد - **مباحث في اللسانيات** ،د م ج،الجزائر،دط،دت.

32- الخطيب القز ويني – **الإيضاح في علوم البلاغة**،دار الجيل ،بيروت ،ط3ن 1993م.

33- ابن خلدون (عبد الرحمن) - **المقدمة** ،دار القلم ،بيروت نط5، 1995م، ج1 .

34- خليل عبد النعيم – **نظرية السياق بين القدماء و المحدثين**،دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر ،ط1 2007م.

35- خفاجي عبد المنعم – **أبو عثمان الجاحظ** ،دار الكتاب اللبناني ،بيروت،دط، دت.

36- أبو داوود ،سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي،**سنن أبي داود** محمد محي الدين عبد الحميد،دار الفكر،دت،ج2 .

37- ابن رشيق القيرواني – **العمدة في شرح الشعر و تمحيصه** ، دار صادر ،بيروت ،ط1، 2003م.

38- الرويلي ميجان و البازعي سعد – **دليل الناقد الأدبي**،إضاءة لأكثر من خمسين تيارا نقديا معاصرا المركز الثقافي العربي،بيروت-لبنان،ط2، 2000م.

39- الزر كلي خير الدين– **الأعلام** ،دار العلم للملايين ،بيروت- لبنان،ط9،دت.

40- طالبي عمار– **اصطلاحات الفلاسفة**، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،دط،1983م.

41- الطوبال بركة فاطمة - **النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون**،المؤسسة الجامعية للدراسات و النشروالتوزيع،ط1993،1م.

42-كريم زكي حسام الدين - **أصول تراثية في اللسانيات الحديثة** ،ط3، 2003م.

43- مذكور عاطف– **علم اللغة بين القديم و الحديث**،دار الثقافة للنشرو التوزيع ،1986م، دط.

44- المراغي أحمد مصطفى - **علوم البلاغة** ،دار الكتب العلمية ،بيروت-لبنان،ط4، 2002م.

45- مرتاض عبد الجليل–**التحولات الجديدة للسانيات التاريخية** ،مطبعة دار هومة ،الجزائر ،2001م

46- المسدي عبد السلام - **التفكير اللساني في الحضارة الإسلامية** ،الدار العربية للكتب،ليبيا،تونس ط1985،1م .

47 – **اللسانيات و أسسها المعرفية** ،الدار التونسية للنشر أوت 1986م،دط.

48- مومن أحمد - **اللسانيات النشأة والتطور**،ديوان المطبوعات الجامعية ،2002م.

49- ميشال زكريا- **الألسنية و علم اللغة الحديث**،المؤسسات الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع بيروت،دط، 1980م.

50- نظيف محمد - **ما هي السيميولوجيا**،دار لإفريقيا الشرق،الدار البيضاء،المغرب،ط1، 1994م.

51- ابن النديم(محمد بن إسحاق أبو الفرج) – **الفهرست**،دار المعرفة ،بيروت ،دط،1978م .

52- صموئيل عبد الشهيد – **الروح العلمية عند الجاحظ** ،في كتاب الحيوان ندار الكتاب اللبناني بيروت ط1975،1م.

53- عبد العزيز محمد حسن– **سوسير رائد علم اللغة الحديث**،كلية العلوم دار الفكر العربي دط،1990م

54- عطية سليمان أحمد –**الجاحظ و الدراسات اللغوية** ،مكتبة زهراء الشرقن1994م، دط ،دت.

55- العلوي شفيقة – **محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة** ،أبحاث للترجمة و النشر و التوزيع ط2004،1م.

56- عمر أحمد مختار – **علم الدلالة** ،عالم الكتب ،القاهرة ،ط5، 1998م.

57- عويضة كامل محمد– **الجاحظ الأديب الفيلسوف** ،دار الكتب العلمية ،بيروت لبنان ط1، 1993م.

58- الغذامي عبد الله–**الخطيئة و التكفير**،(من البنيوية إلى التشريحية)النادي الأدبي الثقافي،دط 1987م

59- غريب جورج – **الجاحظ دراسة عامة** ،دار الثقافة ،بيروت –لبنان،1980م.

60- الفاخوري حنا – **الجامع في تاريخ الأدب العربي** ،دار الجيل ،بيروت – لبنان ،دط،ط ت .

61-**الموجز في الأدب العربي و تاريخه** ،دار الجيل ، بيروت لبنان، ط 2 1991م.

62- فاخوري عادل – **تيارات في السيمياء** ،دار الطليعة للطباعة و النشر،ط1، 1990م .

63- **علم الدلالة عند العرب** (دراسة مقارنة مع السيمياء الحديثة)دار الطليعة للطباعةوالنشر، بيروت-لبنان،2004م.

64- فاسي الفهري عبد القادر– **اللسانيات و اللغة العربية** ،منشورات عويدات ،بيروت دط،باريس،1968م.

65- فروخ عمر– **المنهاج في الأدب العربي و تاريخه**،منشورات المكتبة المصرية ،صيدا،بيروت لبنان،ط1 ،1959م.

66- قدورة زاهية – **الشعوبية وأثرها الاجتماعي و السياسي في الحياة السلامية في العصر العباسي الأول** دار الكتاب اللبناني،بيروت،ط1992،2م.

67- السد نور الدين– **الأسلوبية و تحليل الخطاب**(دراسة في النقد العربي الحديث) دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع،الجزائر،دط،دت،ج1 .

68- **الشعرية العربية**،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،دط،1995م.

69- السعدني مصطفى– **استاطيقا الإشارة**(دراسة بلاغية سيميوطيقية)توزيع منشأة المعارف بالإسكندرية،دط،1982م.

70- السرغيني محمد ،**محاضرات في السيميولوجيا**،دار الثقافة للنشر و التوزيع،الدار البيضاء،ط1، 1987م

71- ابن سنان الخفاجي – **سر الفصاحة** ،دار الكتب العلمية ،ط1، 1982م

72- سيبويه – **الكتاب**،تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ،دار الجيل ،ط1 ،ج1،د ت .

73- السيوطي(جلال الدين) – **الإتقان في علوم القرآن**،دار الكتب العلمية بيروت لبنان ،دط دت.

74- الشهرستاني محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر- **الملل و النحل** ،،تح:محمد السد كيلاني ،دار المعرفة بيروت،1404هـ،ج2.

75- أبو هلال العسكري – **كتاب الصناعتين** ،دار الكتب العلمية ،بيروت – لبنان،1989م،دط.

76- الوعر مازن – **قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث** ،دار طلاس-دمشق،ط1، 19988م.

77- يوسف أحمد - **الدلالات المفتوحة**،مقارنة سيميائية في فلسفة العلامة ،الدار العربية للعلوم، ط1 2005م.

- المتـــرجمة

1- أندري مارتيني – **مبادئ في اللسانيات العامة**،تر:سعدي الزبير ،دار الآفاق،دط ،دت.

2- بيار جيرو – **علم الإشارة** ،(السيميولوجيا)تر:منذر عياشي،دارطلاسدار،دمشق،ط1 1988م

3- رولان بارت **– مبادئ في علم الأدلة** ،تر:محمد البكري،الدار البيضاء ،عيون المقالات ،ط1 1986م.

4- ستيفن أولمان- **دور الكلمة في اللغة**،تر:كمال بشر ،دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع القاهرة ،ط12،دت.

5- سيزا قاسم و نصر حامد أبو زيد - **مدخل إلى السيميوطيقا** (فصول مترجمة)لإيميل بينفينست تر:سيزا قاسم، الدار البيضاء،1986م،ج1.

6- شال بلا – **الجاحظ في البصرة و بغداد و سامراء**،تر:إبراهيم الكيلاني،،ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر،ط1، 1985م.

7- فرديناند دي سوسير – **محاضرات في الألسنية العامة**،تر:يوسف غازي ومجيد النصر ،المؤسسة الوطنية للطباعة ،دط، 1986م.

8- مارسيلو داسكال- **الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة** ،تر:محمد العمري،عبد الرحمن طنكول،محمد الولي،مبارك حنون،إفريقيا الشرق،الدار البيضاء،دط، 1987م.

9- ميشال أريفيه – **السيميائية الأدبية** ،تر:رشيد بن مالك،منشورات الاختلاف، الجزائر، دط 2002م

10 - **السيميائية أصولها وقواعدها**، تر: رشيد بن مالك، منشورات الاختلاف،دط، دت.

11- هنري كوربان – **تاريخ الفلسفة الإسلامية** ،تر:نصيرة مروة /حسن قبيسي،مكتبة الفكر الجامعي منشورات عويدات ،بيروت،دط، 1997م.

- باللغة الأجنبية

1-Roland barthes:**essays critiques** ,edi seuil paris,1964.

2-j.dubois et autres**: Dictionnaire de linguistique**,librairie larousse 1ere edi,paris,1973.

3-A.martinet**: clefs pour la semiologie,** edts seghers, 19973

4-Georges munin: **introduction a la semiologie de minuit**, 1970

5-ch.s.pierce: **ecrit sur le signtra,** comme jaque edi,de Seuil paris 1978.

6-f.de.saussure :**cours de linguistique generale,** enag/alger,1990

- المعاجم و القواميس

1-التنجي محمد - **المعجم المفصل في الأدب**،دار الكتب العلمية ،بيروت- لبنان،دط،1999م،ج1.

2- حمزة طاهر - **مشروع معجم موسوعي صغير**،آداب وعلوم شيخ الزمان،دط،دت.

3-ابن منظور(محمد بن مكرم) – **لسان العرب**،دار صادر بيروت،ط3، 1994م.

4-ابن فارس– **معجم مقاييس اللغة**،دار الجيل،تح:عبد السلام محمد هارون،بيروت،ط2،2001م

5-الفيروز آبادي – **القاموس المحيط**،دار الكتب العلمية ،بيروت-لبنان،1995م، م1،ج4.

6- المنجد في اللغة و الأعلام ،طبعة جديدة و منقحة ،دار المشرق،،بيروت،ط39،2002م.

- المجلات و الدوريات و الرسائل الجامعية

1- بلواهم محمد[مقال]**علم العلامات و النص الأدبي** (سلطة القارئ)السيميائيات و النص الأدبي أعمال ملتقى معهد اللغة العربية و آدابها،جامعة باجي مختار،عنابة،ماي1995م.

2- تدوروف كريستوف [مقال] **نقدم مفهوم علم الأدب عند رولان بارت** ،تر:د/حسين جمعة ، مجلة الموقف الأدبي، مجلة أدبية شهرية يصدرها إتحاد العرب بدمشق ، العدد 248 ،19 أفريل 2000م .

3- حمداوي جميل [مقال]**السيميوطيقا و العنونة**،مجلة عالم الفكر، المجلد 25، العدد 3، مطابع السياسة الكويت،مارس1997م.

4- الطيب دبة – **التجليات السيميائية عند أبي حيان التوحيدي** ،بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير جامعة الجزائر،1997م-1998م.

5- طه نجم وديعة [مقال]**الجاحظ و الكتابة العامة** ،مجلة العربي ،العدد308، 1984م .

6- مغولي إسماعيل [مقال]**اللغة ودورها في عملية الاتصال**،مجلة الآداب و اللغات ،قسم اللغة العربية وآدابها،جامعة الأغواط،ع2، 2004م.

7- عروي محمد إقبال [مقال]**السيميائيات وتحليلها لظاهرة الترادف في اللغة و التفسير**، مجلة عالم الفكر- الكويت،مج24، ع3، 1996م.

8- عون خيرة [مقال]**السيميائية و السيميولوجيا** ،مجلة العلو م الإنسانية ،جامعة قسنطينة ،2002م.

9- عيساني عبد المجيد [مقال]**الجملة في النظام اللغوي عند العرب** ،مجلة الأثر ،كلية الآداب و العلوم الإنسانية ،جامعة ورقلة،ع5، 2006م.

- المواقع الإلكترونية

1- بلقاسم دقة[مقال] (علم السيمياء في التراث العربي)
www.ahlahaleeth.com/vb/printth read.php?+=23157

2- فريد أمعضشو[مقال]المنهج السيميائي
www.odabasham.net/show.php?sid=11078

3- جميل حمداوي[مقال]مدخل إلى المنهج السيميائي
wwwjamilhamdaoui.net/plugins/content/content.php?content.84

فهرس الموضوعات

الصفحة

مقدمة..... 5

الفصل التمهيدي..... 10

أولا – ماهية السيميائيات..... 11

1- تعريف السيميائيات..... 12

2- لمحة عامة عن تاريخ السيميائيات..... 13

3- موضوع السيميائيات 14

4- الاتجاهات والمدارس السيميائية..... 16

5- السيميولوجيا والسيميوطيقا..... 20

6- السيميائيات واللسانيات 21

ثانيا – عصر الجاحظ وحياته..... 23

1- **عصره** 23

- الحياة السياسية 23

- الحياة الاجتماعية 23

-الحياة الفكرية والثقافية 25

2- **حياتـــه**..... 26

- اسمه ومولده..... 26

- نسبة 26

- نشأته 27

- مرضه ووفاته 28

- آثاره 28

ثالثا – الكتاب(البيان و التبيين)..... 31

1- محتواه 31

2-**لغة وأسلوب الجاحظ فيه** 32

- لغته..... 32

- أسلوبه 33
3-**تاريخ ودوافع البيان و التبيين**..... 35
- تاريخ تأليفه..... 35
- دوافع تأليفه..... 36
4-**مفهوم البيان والتبيين عند الجاحظ**..... 37
- البيان..... 37
- التبيين..... 39
5- القيمة الأدبية والتاريخية للبيان والتبيين..... 41
- الفصل الأول: العلامة عند الجاحظ..... 45
أولا- أسس تصور العلامة عند الجاحظ..... 46
ثانيا- مفهوم العلامة عند الجاحظ..... 52
ثالثا- المواضعة اللغوية..... 55
رابعا- أنواع العلامة عند الجاحظ..... 60
1- دلالة اللفظ..... 60
2- دلالة الإشارة..... 62
3- دلالة العقد..... 66
4- دلالة الخط..... 70
5- دلالة النصبة..... 75
الفصل الثاني : آليـــات إنتـــاج العـــلامة اللغويـــة..... 82
أولا- العلامة اللغوية والدرس السيميولوجي الحديث..... 83
1- اعتباطية الدليل اللغوي..... 84

2- مبدأ الخطية للدال اللغوي..... 84
ثانيا- العلامة اللغوية عند الجاحظ..... 87
ثالثا- علاقة العلامة اللغوية بمفهوم النظام..... 92
رابعا- العلامة اللغوية من خلال العلاقات الاستبدالية والتركيبية..... 100
1-العلاقات الاستبدالية..... 102
2-العلاقات التركيبية..... 105
خامسا-السياق والمقام وأثرهما في انجاز الدلالة..... 109
1- **السياق**..... 109
- السياق لغة..... 109
- السياق اصطلاحا..... 109
2- **المقـــام**..... 110
- المقام لغة..... 110
- المقام اصطلاحا..... 110
-دور السياق والمقام في إنجاز الدلالة..... 110
خاتمة و نتائج..... 116
قائمة المصادر و المراجع..... 118
فهرس الموضوعات..... 125

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com